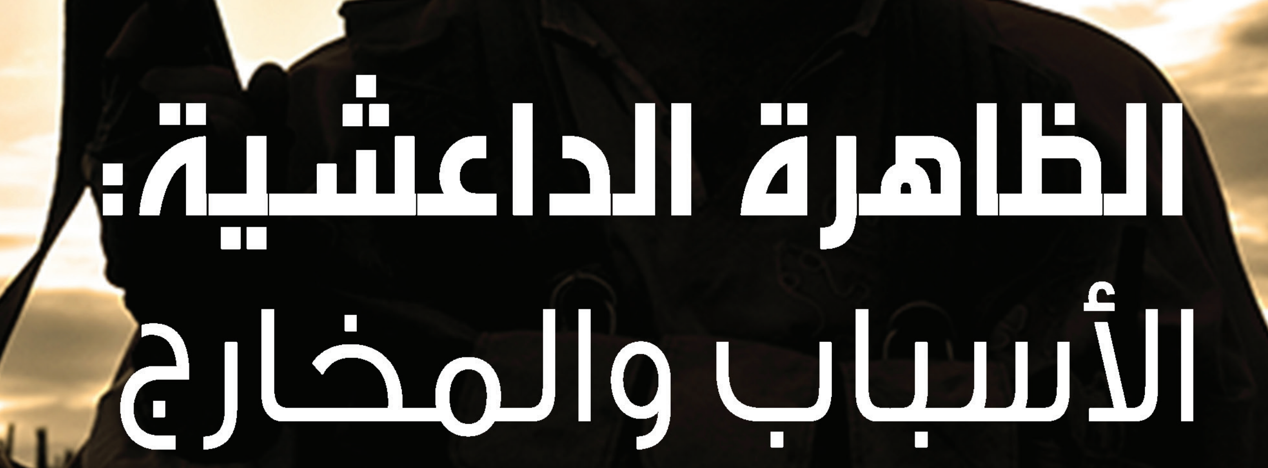


THE.WHAT?

ذوات



الظاهرة الداعشية: الأسباب والمخارج

مجلة .ثقافية .أسبوعية

العدد ١ . ٢٠١٤


مؤمنون
بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث



العدد ١ - ٢٠١٤



مجلة
ثقافية
أسبوعية

المشرف العام
د. أحمد فايز

رئيسة التحرير
سعيدة شريف

تدقيق لغوي
د. عبد السلام شرماط

تنفيذ
رنا علاونة

المراسلات:
تقاطع زنقة واد بهت وشارع فال ولد عمير، أكدال،
قرب مسجد بدر
الرباط، المغرب
ص.ب: ١٠٥٦٩
تلفون: ٠٠٢١٢٥٣٧٧٧٩٩٥٤
فاكس: ٠٠٢١٢٥٣٧٧٧٨٨٢٧
info@mominoun.com
www.mominoun.com





كلمة
هذا العدد

مـع حلـول السـنة المقبلـة، سـتكمل «مؤسسـة مؤمنـون بـلا حـدود للدراسـات والأبحـاث» سـنتها الثانيـة، وتكـون بذلـك قـد وضعـت بعضاً مـن الأسـس الحقيقـة للفكـر التنويـري، والـتي لا يمكـن أن تتجلـى، إذا لـم تفتـح بـاب السـؤال على مصراعيـه، وفي مختلـف المجـالات: الثقافيـة، الفكريـة، الفلسـفية، الدينيـة، العقديـة، والاجتماعيـة، وغيرهـا مـن المجـالات الـتي باتـت تـؤرق الإنسـان العـربي، وتجعلـه أمـام تحديـات وتحـولات عصيبـة.

وانطلاقـاً مـن هـذه الرؤيـة، وإيمانـاً منهـا بالـدور الاسـتراتيجي والفاعـل للثقافـة والفكـر في تنميـة المجتمعـات، وصناعـة الحيـاة، ونهضـة الإنسـان، ومسـاعدته على مواجهـة التحـولات والانقلابـات الخطيرة الـتي يشـهدها العالـم العـربي اليـوم، خاصـة مـع بـروز حـركات جهاديـة تتوسـل بمفاهيـم خاطئـة للديـن كالجماعـة الإسـلامية المتشـددة «بوكـو حـرام» بنيجيريا، وتنظيـم الدولـة الإسـلامية في العـراق والشـام المعروفـة اختصـاراً باسـم «داعـش»، قامـت مؤسسـة مؤمنـون بـلا حـدود بالانفتـاح إعلاميـاً على العالـم العـربي مـن خـلال موقعهـا الرسـمي، ومجلتيهـا الفصليتـين الفكريتـين المحكّمتـين: «يتفكـرون»، و«ألبـاب»، ومـن خـلال بوابـة الثقافـة عـبر صحيفـة «ذوات» الثقافيـة الإلكترونيـة، والآن مـن خـلال مجلـة ثقافيـة أسـبوعية إلكترونيـة، تصـدر مؤقتـاً مرتـين في الشـهر، في انتظـار أن تتحـول إلى مجلـة ورقيـة، شـأنها شـأن المجـلات الأخـرى.

ونظـراً لمـا يثـيره تنظيـم الدولـة الإسـلامية «داعـش» مـن أسـئلة مؤرقـة اليـوم حـول حقيقـة هـذا التنظيـم، وحـول تحولـه في وقـت قصـير، إلى ظاهـرة كونيـة أصبحـت تـداول بشـكل خطـير، باعتبـاره صانـع الحـدث الديـني والأمـني والسـياسي في منطقـة الـشرق الأوسـط، ارتـأت مجلـة «ذوات» أن تفـرد ملـف عددهـا

الأول للظاهـرة الداعشـية، مسـاهمة منهـا في تفسـير مـا يمكـن تفسـيره، انطلاقـاً مـن زوايـا متعـددة، خاصـة أن الظاهـرة تعقـدت إلى درجـة، تجاوزنـا فيهـا مقـام أن نكـون مـع «داعـش» أو ضـده، بتعبـير الباحثـة الإصلاحيـة المصريـة هبـة رؤوف عـزت.

وتتمحـور مـواد هـذا الملـف، حـول حـصر أهـم الأسـباب الـتي قـد تفـسر تصاعـد أسـهم التنظيـم، في بورصـة الحسـابات الأمنيـة والاسـتراتيجية لـدول المنطقـة؛ ويتوقـف البعـض منهـا عنـد أهـم المخـارج النظريـة الكفيلـة بالتصـدي للظاهـرة، وهـي المخـارج الـتي تتشـابك فيهـا عوامـل دينيـة وسياسـية اجتماعيـة أساسـاً.

وإضافـة إلى الملـف، تتضمـن المجلـة مجموعـة مـن الأبـواب، هـي: «رأي ذوات»، ويشـتمل عـلى ثلاثـة مقـالات لكتـاب عـرب حـول قضايـا السـاعة، وهـم الكاتـب الأردني محمـد برهومـة، والكاتـب المـصري هـاني نسـيرة، والكاتـب اليمـني عصـام القيـسي.

وتحـضر الثقافـة والفنـون في بـاب مسـتقل بالمجلـة، تضمـن مقالـين؛ الأول عـن «الحداثـة ومـا بعـد الحداثـة؛ مقاربـات فلسـفية» للكاتـب والناقـد العـراقي إحسـان الشـيخ التميمـي، وآخـر حـول «مـن الذاكـرة إلى التاريـخ» للناقـد الفـني والجمـالي المغـربي فريـد الزاهـي، كمـا يحـضر «حـوار ذوات» مـن خـلال حـوار مـع الناقـد والمترجـم المغـربي شـكير نـصر الديـن/ حـول النقـد والترجمـة في العالـم العـربي.

ولأن التربيـة والتعليـم لا تعيـش أزهـى مراحلهـا في العالـم العـربي، وتعـرف الكثـير مـن المشـاكل بسـبب الإصلاحـات، وإصلاحـات الإصلاحـات المتكـررة، فقـد خصصـت لهـا المجلـة بابـاً مفتوحـاً لمسـاهمات الباحثـين التربويـين العـرب، يطـل علينـا في هـذا العـدد الأول الباحـث التونـسي مصـدق الجليـدي بمقـال عنوانـه «مـاذا يعـني أن أكـون مربيـاً اليـوم؟»، إلى جانـب بـاب تعريفـي بجديـد الإصـدارات العربيـة، الـتي تسـاهم فيهـا مؤسسـة «مؤمنـون بـلا حـدود للدراسـات والأبحـاث» بجـزء غـير يسـير، يصـل إلى سـتين كتابـاً في السـنة.

وحرصـاً منهـا عـلى مـد جسـور التواصـل مـع الباحثـين والمثقفـين في العالـم العـربي، فـإن مجلـة «ذوات» توجـه الدعـوة لهـم مـن أجـل المسـاهمة في هـذه المجلـة الثقافيـة وتطويرهـا، بغيـة خدمـة الثقافـة والفكـر في مجتمعاتنـا العربيـة.

سعيدة شريف

في الداخل ...

ملف العدد: الظاهرة الداعشية



١٠ - ٤٤ يحاول ملف الظاهرة الداعشية: الأسباب والمخارج تفسير ظاهرة «داعش» انطلاقاً من زوايا متعددة كمحاولة لحصر أهم الأسباب وللتوقف عن أهم المخارج النظرية الكفيلة بالتصدي للظاهرة.

ثقافة وفنون

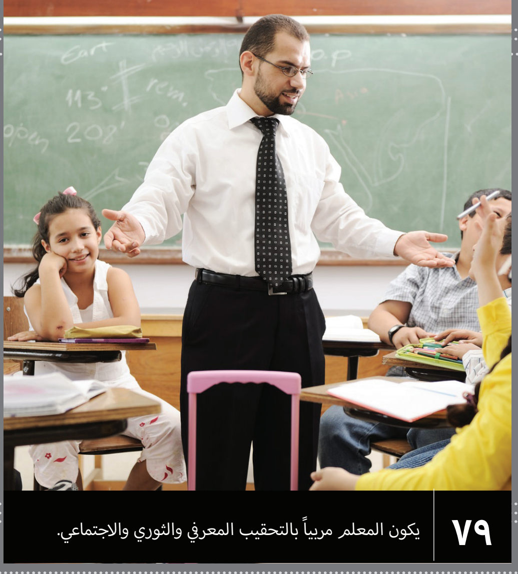


٥٧ افتتاح متحف الفن الحديث والمعاصر بالمغرب

THE WHAT? ذوات



٧٣ شكير نصر الدين



٧٩ يكون المعلم مربياً بالتحقيب المعرفي والثوري والاجتماعي.




لا إله إلا الله
الله
رسول
محمد
الدولة الإسلامية في العراق والشام







ملف العدد

الظاهرة الداعشية:

الأسباب والمخارج



إعداد: منتصر حمادة

باحث مغربي في
الشؤون الإسلامية.

«داعش» ...
عقيدة داخلية أم لغز مبطن؟

كان الحديث عن تنظيم «داعش»، بداية، لا يتجاوز قلاقل علاقتها بباقي الحركات الإسلامية «الجهادية»، والتي رفعت السلاح ضد النظام السوري، قبل أن تتطور الأمور ليبرز التنظيم، باعتباره صانع الحدث الديني والأمني والسياسي في المنطقة، ويصبح حديث الساعة عند «الأصدقاء» و«الأعداء»، ليتسبب في خلط الأوراق الاستراتيجية لدى صانع القرار، سواء على الصعيد المحلي أو الإقليمي أو الدولي.

منذ سنة ونيف، أسهم تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق والشام» (المعروفة اختصاراً بتنظيم «داعش») في تصاعد، إلى درجة أصبحت ظاهرة كونية في التداول، وليست متعلقة فقط بأحداث «الحراك العربي»، أو تطورات الأوضاع في منطقة الشرق الأوسط.

كان الحديث عن التنظيم، بداية، لا يتجاوز قلاقل علاقتها بباقي الحركات الإسلامية «الجهادية»، والتي رفعت السلاح ضد النظام السوري، قبل أن تتطور الأمور ليبرز التنظيم، باعتباره صانع الحدث الديني والأمني والسياسي في المنطقة، ويُصبح حديث الساعة عند «الأصدقاء» و«الأعداء»، ليتسبب في خلط الأوراق الاستراتيجية لدى صناع القرار، سواء على الصعيد المحلي أو الإقليمي أو الدولي.



بالنسبة لأبناء المنطقة، صدرت قراءات عدة عن الدوافع السياسية والدينية والاجتماعية التي تقف بشكل أو بآخر وراء هذا المد المريب، والذي يطرح علامات استفهام مؤرقة أكثر، مما يُقدم أجوبة صريحة.

في هذا السياق، يأتي هذا الملف، ضمن ملفات أخرى، صدرت هنا أو هناك، في الشرق والغرب، حول «الظاهرة الداعشية»، مساهمة منّا في تفسير ما يمكن تفسيره، انطلاقاً من زوايا متعددة، خاصة أن الظاهرة تعقدت إلى درجة، تجاوزنا فيها مرتبة/ مقام أن نكون مع «داعش» أو ضده، بتعبير الباحثة الإصلاحية المصرية هبة رؤوف عزت.

تتمحور مواد هذا الملف حول حصر أهم الأسباب التي قد تفسر تصاعد أسهم التنظيم، في بورصة الحسابات الأمنية والاستراتيجية لدول المنطقة؛ مع التوقف في آن، عند أهم المخارج النظرية الكفيلة بالتصدي للظاهرة، وهي المخارج التي تتشابك فيها عوامل دينية وسياسية اجتماعية أساساً.

وهكذا توقف الباحث سمير الحمادي، وهو أحد أبرز المتخصصين في الحركات الإسلامية «الجهادية»، عند أهم المحددات التي تقف وراء الظاهرة، معتبراً بالرغم من ذلك أن «العامل العقدي (الجهادي)، على أهميته، ليس كافياً وحده لشرح صعود «داعش» على هذا النحو الكاسح، الذي جعلها تسيطر على مناطق واسعة في العراق وسورية، وتمحو الحدود بين البلدين لأول مرة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر.

التنظيمات الجهادية تتميز بقدرة جيدة على التقاط فرص «فراغات السلطة» التي يخلّفها انهيار الأنظمة

وميّز الحمادي بين مستويين؛ أولاً: العوامل التي تخص «بيئة العمليات»، وهنا يشير إلى نقطة مهمة، وهي أن التنظيمات الجهادية تتميز بقدرة جيدة على التقاط فرص «فراغات السلطة» التي يخلّفها انهيار الأنظمة، أو تلك التي تخلقها التوترات والنزاعات السياسية والطائفية الحادة، والتمدد في مساحاتها.

ويتعلق المحدد الثاني بالعوامل التي تخص التنظيم نفسه في تركيبته وقدراته، وتتلخص في الجانب الديني المتشدد سالف الذكر، وهو دافع مهم لا يمكن تجاهل تأثيره الميداني / العملياتي (عبر تفعيل مفاهيم «الجهاد» و«الشهادة»)، بالإضافة إلى إمكانياته المادية واللوجستية الكبيرة والخبرات العسكرية العالية لقياداته (منهم ضباط سابقون في الجيش العراقي) التي جعلت التنظيم قوة ضاربة.

أما عبد اللطيف الحناشي، أستاذ التاريخ المعاصر في تونس، وإن أكد على صعوبة تحديد مخارج نهائية وكاملة للتصدي لهذه الظاهرة المركبة والمعقدة؛ فيضيف مع ذلك أن الأمر يتطلّب تضافر مقاربات متعددة الأبعاد والمستويات يتداخل فيها الثقافي بالاجتماعي والتربوي بالتعليمي والعائلي، والإعلامي بالأمني والحسم العسكري، باعتبار الطبيعة العنيفة لهذه الظاهرة. وقد توقف عند بعض المخارج الفكرية والثقافية إلى جانب مخارج عملية، منها ما هو سياسي وأمني واستخباراتي، ومنها ما هو فكري وديني.

بالنسبة للباحث عادل الطاهري، فإن «داعش صناعة داخلية بالأساس»، مؤكداً أن «المزج في نسق تكاملي بين العوامل المادية والفكرية جدير بتقديم تفسير للخلفيات الثاوية وراءها»، مضيفاً أنه «لا يخلو التراث من شواهد تعزز هذه الرؤية، فلئن كان التراثيون في الغالب يتمسحون بالفكر الخارجي، لتفسير جذور العنف داخل النسق الإسلامي، وبالضبط ينطلقون من شخصية «ذو الخويصرة» الذي أعلن تمرداً على النبي، عندما كان بصدد تقسيم الغنائم، فإن هذه الحادثة غنية بالدلالات؛ فالتمرد على قرار نبوي هنا يرجع إلى مظنة غياب العدالة الاجتماعية والتقسيم العادل للغنائم، إنه حتماً ليس

سبباً دينيا محضاً هو الذي نبه في «ذو الخويصرة» النزعة التطرفية، بل عوامل اقتصادية اجتماعية، من هنا فالطرح الذي يجعل من «داعش» إفرازاً اجتماعياً لوضع سياسي موبوء، تغيب فيه أدنى مؤشرات العدل والمساواة، له وجاهة معتبرة».

وتحت عنوان «داعش: دولة الكفر أم دولة الإسلام»، يتساءل الباحث المصري محمد الدويك عن ماهية هذا التنظيم، ويقول إنه يحمل عقيدة داخلية هشة لا تقوم على شيء، لكن أهم ما فيها أنها تخاطب أسوأ ما في العقل الباطن للبشرية، وتحيي نزعات القتل والانتقام وشهوة السلب والسفك، وتغذية كافة الغرائز المنحطة للجزء السفلي من المخ. تماماً مثل تنظيمات المافيا في العالم الغربي، والتي تملك عقيدة داخلية وبناء هرميا وتسليحا قويا وشبكات مصالح وعلاقات تجارية، والتي تتصدى لها نظم العالم كلها بالتعاون القانوني والأمني، وتقوية الجبهات الداخلية من اقتصاد وإدارة واستقرار سياسي... لكن الفارق أن داعش، كتنظيم إجرامي، يعمد إلى قتل ضمير تابعيه بتبرير تلك الهمجية وهذا الشر، بأنها أفعال أو تكاليف مقدسة جاءت بها وصايا وأسفار الأنبياء والرسالات؛ فهنا يصير القتل عملاً مجيداً يكتسب صبغة دينية، بدلاً من كونه فعلاً شنيعاً يستوجب العقاب والاحتقار.

وفي ما يتعلق بالشق السياسي للظاهرة، يرى الكاتب والإعلامي ياسر أوروين، أنه «لا التفسير الاجتماعي السياسي، ولا التفسير العقائدي الديني قادران وحدهما على استجلاء معالم الظاهرة أو الإجابة عن عديد الأسئلة المرتبطة بهذا التنظيم، خصوصاً في ظل تزايد قوته المالية والإعلامية وكذا تزايد أعداد المنتمين إليه»، موضحاً أنه «يقع كل من يحاول الإجابة عن هذا السؤال في موقع «الرامي» من جهة، ومن جهة أخرى المدافع عن تكتل معين، باعتبار أن وجود طرف سياسي، دول على وجه الخصوص، أنشأ هذا التنظيم، للاستفادة منه في إفشال مشروع الخصوم، بات أمراً مُسلّماً به، وخارج دائرة التفكير والاختبار، فيما هو لا يعدو أن يكون تكراراً لما جرى كثيراً في التاريخ السياسي الحديث، من ناحية استثمار كل طرف ما هو متاح لتبشيع الخصم السياسي وشيطنته، واعتباره مصدراً لكل الشرور والموبقات»، مؤسساً مقاله على دراسة للباحث السعودي نواف القديمي، والتي اشتغلت على أهم الأسباب السياسية التي تقف وراء صعود الظاهرة.





بقلم: محمد الدويك
باحث مصري في الفكر الإسلامي.

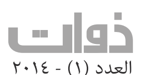
داعش دولة الكفر أم دولة الإسلام

إن القتال جاء كتشريع للمسلمين وغيرهم في القرآن ردّاً على الاضطهاد والظلم، وردع الطغاة والسفاحين واللصوص، وليس خروجاً طائشاَ لهدم البلاد وترويع الناس، وجاء لرفع جودة حياة الإنسان والوصول إلى غاية منشودة؛ الحرية العقيدية وآمان البلاد. وجاء كوسيلة وليس غاية؛ فلو تحققت الغاية، دون تلك الوسيلة، لسقطت الوسائل، وسقط القتال.

التخلف هو الذي يمنع صاحبه من الإحساس بالخجل؛ الخجل من أفعاله الوضيعة وسلوكه المشين، والخجل من وضعه الإنساني والاجتماعي المتراجع، والذي يجلب المزيد من الازدراء والفشل. كان آينشتاين يقول، إن الحقيقة تحتاج إلى كشوفات متعاقبة، فلا يكفيها الكشف لمرة واحدة، بل إلى الكشف المتوالي والمتواصل تماماً، مثل تمثال من الرخام في صحراء رملية يحتاج إلى التنظيف والإجلاء كل فترة، حتى لا يدفنه التراب.

والحقيقة أن دولة، مثل العراق، وهي واحدة من أقدم بلدان العالم، تشهد سوء حظ مريب منذ أكثر من أربعة عقود؛ فبعد أن كانت عاصمتها أكثر مدن العرب ليبرالية، حيث النساء يعملن والصحفيون يكتبون والأدباء ينشدون الشعر، سقطت في يد سياسي متهور سخرها من أجل ثاراته الشخصية، في حروب لا تنتهي، ما بين إيران والكويت، وتحدي التحالفات الدولية والواقع المعاصر، ثم سقطت في يد احتلال لا يعرف شيئاً عن الشرق سوى النفط وافتعال الصراعات الطائفية، وكان أول تصرف له داخل بغداد أن حاوط وزارة النفط بقوات المارينز، بينما ترك متاحف بغداد فريسة السرقة والسلب. وكأن التاريخ لا يعنيهم في شيء، على الرغم من أن القانون الدولي يحتم على الدولة الغازية حماية التراث الإنساني للدول التي تحتلها، كتكليف إنساني أخير يبقي على آدميتنا.

وفي النهاية، صارت صريعة بين يدي متشددين ومتطرفين، من أمثال أبي بكر البغدادي «أبو دعاء سابقاً»، والذي نال درجتيْ الماجستير والدكتوراه بالجامعة الإسلامية ببغداد، وهو ما



يجعلنا نعيد التساؤل عن طبيعة ما تقدمه الجامعات في بلادنا لمن يتلقى العلوم بها، وهل تصنع عقلية نقدية نشطة تبحث عن الأسئلة والإجابات الملائمة لعصر جديد، أم تجلس بين خطايا الماضي، لتعيد تكرارها وإنتاجها في دائرة لا تنتهي. ثم ينوون إقامة ما يسمونه دولة الإسلام، وهم من حيث لا يدركون، يؤسسون لدولة الكفر؛ الكفر بالإنسان والعمران والحريات، وهي أدوات الله في أرضه ومعقد تكليفه وأحكامه.

الواقع هو سيد الموقف

تبدأ القصة من الحكم الطائفي الذي كرسه رئيس الوزراء السابق نوري المالكي، لسنوات متوالية، وسماحه بتكوين ميليشيات شيعية خارج سيطرة الدولة، تعمل على حماية حكمه الذي وصف على نطاق واسع بأنه مذهبي، وتمارس الإجرام والقتل بمأمن من العقاب والقانون، وهو ما جعل العشائر والمدن السنية تضج بالشكوى. خرج بعضها لتظاهرات حاشدة في الشوارع في مشهد يقترب من ثورات الربيع العربي، وارتمى البقية في حضن تنظيم متطرف، أملاً في رفع الظلم عنهم، وكانوا مستعدين للتغاضي عن الانحراف الفكري، طالما كانوا ينتمون لمذهبهم ويقاتلون في صفهم. ثم، وفي مشهد غريب، وجدنا القاعدة في العراق التي أسسها أبو مصعب الزرقاوي، والتي تحولت إلى داعش، تتحالف مع مقاتلي الطريقة النقشبندية ذات الهوى والانتماء الصوفي، على ما بين السلفية والصوفية من خلافات تاريخية تصل إلى حافة التكفير والقتل، وهو ما وفر لها نصيراً أو ظهيراً شعبياً قوياً، لما تحظى به الطريقة الصوفية من تغلغل وقبول شعبيين. ومن دون هذا الظهير، ما كان لداعش أن تتمدد في كل تلك المناطق، خاصة أنها سيطرت على مدينة الموصل ثاني أكبر المدن العراقية، وعاصمة محافظة نينوى، والتي تحوي أكبر مصافي النفط في العراق.

> الحقيقة أن دولة، مثل العراق، وهي واحدة من أقدم بلدان العالم، تشهد سوء حظ مريب منذ أكثر من أربعة عقود

على خلاف ذلك، فقد دخلت قوات القاعدة في حرب طاحنة مع الجيش الإسلامي بالعراق، وهو تنظيم سلفي جهادي ينتمي لذات المدرسة، إلى أن توصلوا إلى هدنة في ٢٠٠٧ بعد الاتفاق على الخلافات المعلقة بينهما. وتكرر الأمر بين داعش تحت قيادة البغدادي، وبين جبهة النصرة، فرع تنظيم القاعدة في سوريا

بقيادة أبي محمد الجولاني، عندما شعر الأخير أن البغدادي يتدخل في مساحة نفوذه.

وهذا ما يجعلنا نعتقد أن الأيديولوجيا وحدها، ليست هي التي تقود هذه التنظيمات، ولا القناعات الفكرية والفقهية، لأن ما بين السلفية والصوفية من خلاف تاريخي، يفوق - ربما- ما بين الإسلام والمسيحية، أو ما بين السنة والشيعة... وبذا، فحكم الواقع واستراتيجيات التمدد على أرض سائبة لا تجد راعياً، هو الأساس والبحث عن سلطة ومجد إنسانيين تحت أية راية عقدية، توفر القناعة الفكرية لبعض المستجلبين خصيصاً لهذه المهمة، من مقاتلين ربما لا يتقن أحدهم قراءة الفاتحة أو خواتيم سورة البقرة، لكنه وجد مساحة ملائمة لممارسة ما بداخله من انحراف ونزوع للقتل.

بعد تحلل رابطة القاعدة، وغياب السلطة المركزية في السيطرة على القواعد والأطراف، ظهرت أجيال أخرى تحمل سوءات كافة التنظيمات السابقة

نشرت الصحف العالمية عن أحد الأوربيين المنتمين لداعش، وهو دنماركي يطلق عليه «البيج إيه»، وهو شاب محبط تم الحكم عليه بالسجن، قبل ذلك، في كوبنهاجن بتهم السرقة والبلطجة، ثم قضى مدته، وفجأة بدأت تظهر عليه علامات تديّن غريبة، فاهتدى إلى الإسلام عبر بعض الكتيبات السلفية، ومنها وجد ضالته المنشودة في مفهوم الجهاد الذي يقدم تصوراً خيالياً عن دولة الخلافة التي تباع فيها القينات والجواري، ويحمل فيها الفرسان السلاح فوق صهوة جواد ليقاتلوا العالم... تلك صورة مثالية لم يحلم بها البيج إيه. القتال والشهوات وإسكات الضمير بعاطفة دينية سطحية ومزيفة، ولا تحمله بأية تكاليف سلوكية أو روحية تجعله يجاهد نفسه أولاً، قبل أن يجاهد العدو.



أجيال العنف المتوالية

كان ابن لادن يدعي أنه يقاتل الكفر السوفييتي في أفغانستان دفاعاً عن الدين والحدود، ولم تكن أمريكا قد ظهرت بعد، كعدو يجب مواجهته أو إعلان الحرب عليه، بل كانت داعماً للجهاد من هذا النوع، بينما التغير الرئيس أتى مع حلول حرب الخليج الثانيةعام ١٩٩١، والتدخل الأمريكي لإسقاط احتلال صدام حسين للكويت، ومن ثم هبوط القواعد والعتاد الأمريكي على الأراضي السعودية للمرة الأولى، واتخاذها مركزاً للطلعات الجوية، وإعادة التزود بالوقود والسلاح. وبعد الحرب، أعلنت أمريكا بقاء تلك القوات مرابضة في أرض السعودية بشكل دائم، وهو ما استفز أسامة بن لادن، وعدَّه احتلالاً للمنطقة من قبل القوات الصليبية، والتي يجب مواجهتها وإعلان الحرب عليها. وهنا، نشأت فكرة الجبهة الإسلامية العالمية لقتال الصليبيين واليهود، المشتهرة بالقاعدة.

كان ابن لادن يعتنق مدرسة أستاذه عبد الله عزام، والذي يرفض قتال العدو القريب، وهي الأنظمة الحاكمة للدول العربية والإسلامية، أو إعلان الحرب على الشعوب العربية والمسلمة. ورأيه، أن كل الأنظمة التي بدأت هذا القتال فشلت فشلاً ذريعاً، وقاومتها الحكومات ولفظتها الشعوب، وهو ما يختلف عن مدرسة الجهاد الإسلامي في سبعينيات القرن الماضي في مصر وغيرها من الدول، والتي انخرط فيها مساعده أيمن الظواهري، والتي رأت في كفر الأنظمة الحاكمة «العدو القريب» ووجوب دعوتها من جديد للإسلام، وإن لم تستجب، فقد وجب القتال في حقها، وهي ما تجد سندها المباشر من تنظيرات سيد قطب.

وتفيد الوثائق التي وجدوها في مخبأ أسامة بن لادن، أن الرجل لم يكن مولعاً بإنشاء إمارة أو دولة إسلامية، ويجدها خطوة غير ملحة في هذا الوقت، ومن الخطورة البدء بها. وذلك

عندما عرض عليه البعض اتخاذ رقعة من أرض اليمن لإقامة الخلافة الإسلامية المنشودة، ثم التوسع من خلالها لكافة البقاع... وكان ابن لادن يجد أنه من الصعوبة إقامة إمارة دون رضا من السكان المحليين، واستمالة زعماء القبائل، فتجنب القتال الداخلي معهم، لأن أية قطرة دم تسيل، ستكون عواقبها وخيمة خاصة في مجتمع قبلي لا يتساهل مع تلك الأمور.

ولكن بعد تحلل رابطة القاعدة، وغياب السلطة المركزية في السيطرة على القواعد والأطراف، ظهرت أجيال أخرى تحمل سوءات كافة التنظيمات السابقة... وأخذت فكرة قتال العدو القريب، متمثلاً في الشعوب والحكومات، من التنظيمات الجهادية الداخلية، وقتال الأمريكيين كعدو بعيد، ثم مخالفة صريحة لوصايا ابن لادن في التسرع بالاستيلاء على قطعة أرض وإقامة الخلافة.

الإسلام لا يدعو إلى تكريس السلطة في يد أحدهم، سواء كان الحاكم السياسي أو الزعيم الديني، ومشكلة الإسلام ليست في تكريس السلطة، بل في غيابها..!

ومن تلك التلفيقات، ظهر الجانب العقدي الذي تستند عليه داعش، والذي خرج من رحم أسوأ تنظيمات العنف في العقود الأربعة الفائتة، فيما شكل بيئة خصبة لجذب المجرمين والمعتلين نفسياً وسلوكياً من أغلب بقاع الأرض.

يحمل تنظيم داعش عقيدة داخلية هشة لا تقوم على شيء، لكن أهم ما فيها أنها تخاطب أسوأ ما في العقل الباطن للبشرية، وتحيي نزعات القتل والانتقام وشهوة السلب والسفك، وتغذية كافة الغرائز المنحطة للجزء السفلي من المخ، تماماً، مثل تنظيمات المافيا في العالم الغربي، والتي تملك عقيدة داخلية وبناء هرميا وتسليحا قويا وشبكات مصالح وعلاقات تجارية،



والـتي تتصدى لهـا نظـم العالـم كلهـا بالتعـاون القانـوني والأمـني، وتقويـة الجبهـات الداخليـة مـن اقتصـاد وإدارة واسـتقرار سـياسي... لـكن الفـارق أن داعـش، كتنظيـم إجرامـي، يعمـد إلى قتـل ضمـير تابعيـه بتبريـر تلـك الهمجيـة وهـذا الـشر، بأنهـا أفعـال أو تكاليـف مقدسـة جـاءت بهـا وصايـا وأسـفار الأنبيـاء والرسـالات؛ فهنـا يصـير القتـل عمـلاً مجيـداً يكتسـب صبغـة دينيـة، بـدلاً مـن كونـه فعـلاً شـنيعاً يسـتوجب العقـاب والاحتقـار.

خلـق الله النفـس البشريـة وألهمهـا فجورهـا وتقواهـا... وتـرك لهـا الحريـة في اختيـار مـا شـاءت مـن الطـرق... وذلـك هـو التحـدي الأول أمـام الإنسـان، كيـف يصـير شـخصاً متحـضراً، يقـاوم نزعـات القتـل والاسـتبداد والظلـم، ويعـلي مـن شـيم الحـوار والتواصـل والـرقي، وتلـك وظيفـة الأديـان في المقـام الاول.

انفراط العقد

اعتقـادي أن الإسـلام لا يدعـو إلى تكريـس السـلطة في يـد أحدهـم، سـواء أكان الحاكـم السـياسي أو الزعيـم الديـني... مشـكلة الإسـلام ليسـت في تكريـس السـلطة، بـل في غيابهـا..! فـأي قـارئ للقـرآن، يسـتطيع أن يكـون إمامـاً للمسـلمين في الصـلاة، وكافـة العبـادات والشـعائر لا تحتـاج إلى إكلـيروس خـاص بهـا... ويسـتطيع سـائق تاكـسي في باكسـتان أن يفـتي في أمـور الديـن، مثلـه مثـل شـيخ الازهـر الشريـف في مـصر. أيضـاً هنـاك أدبيـات إسـلامية وتاريخيـة تعطـي مسـاحات للاعـتراض السـلمي عـلى الحاكـم، طالمـا لـم يلـتزم بــ«شرع الله» والمصلحـة.

لذلـك، فزعيـم أي حـراك ديـني أو جماعـة مسـلحة لا يضمـن دائمـاً ولاء تابعيـه، سـواء بـوازع السـلطان أو بـوازع القـرآن... وهـو مـا شـهدناه ابتـداء مـن خلافـات أبي مصعـب الزرقـاوي مـع أسـامة بـن لادن؛ عندمـا أراد الأول قتـال المرتديـن مـن أهـل العـراق قبـل قتالـه للأمريـكان، بينمـا اعـترض ابـن لادن عـلى قتـال «المسـلمين»، ورأى أنـه يجـب أن يوجـه كافـة طاقتـه لقتـال الأمريـكان.

> الفتنة أن يُحرم الإنسان من حريته في اختيار دينه؛ حريته في القناعة والإيمان والعبادة، وأن يحرم من حياة آمنة مستقرة هادئة وسط أهله

وكل واحـد لا يسـتطيع بسـط نفـوذه «الديـني» عـلى الآخـر، خاصـة وأنـه يسـتطيع أن يجـد مـا يـبرر لـه تصرفاتـه مـن مفتيـه الخـاص، أو مـن تأويـل شـاذٍّ لكتـب الـتراث والفقـه.

تكرر الأمـر بـين أبي محمـد الجـولاني، زعيـم جبهـة النـصرة، فـرع تنظيـم القاعـدة بسـورية، وبـين أبي بكـر البغـدادي، زعيـم داعـش، خليفـة أبي مصعـب الزرقـاوي، مؤسـس تنظيـم القاعـدة في العـراق. عندمـا شـعر الجـولاني أن البغـدادي يريـد بسـط نفـوذه عليـه، وتحجيـم مكانتـه ومقاسـمته إمارتـه في سـورية، نشـبت بينهمـا مشـادة حـادة، أدت إلى تدخـل أيمـن الظواهـري بفتـواه لفصـل السـلطات بـين قاعـدة سـورية وداعـش العـراق، والـتي لـم يلـتزم بهـا البغـدادي، فانشـق عـلى تعليمـات رئيـس التنظيـم الرئيـسي، ممـا جعـل القتـال ينشـب بـين النـصرة وداعـش، أبنـاء تنظيـم القاعـدة. حـتى إن بعـض الإحصـاءات قالـت إنهـا خلفـت أكـثر مـن ٤٠٠٠ قتيـل مـن قـوات الطرفـين.! بـل إن زعامـة البغـدادي لـم تلـق ترحيبـاً بـين صفـوف المنظريـن الجهاديـين أنفسـهم؛ فالمنظـر الجهـادي أبـو محمـد المقـدسي أصـدر بيانـاً مـن محبسـه مـن الأردن، يعلـن فيـه بطـلان خلافـة البغـدادي، وأنهـا سـتؤدي إلى المزيـد مـن الفرقـة وسـفك الـدم بـين المسـلمين، وتبـث الفرقـة والتنابـذ بـين الجهاديـين.

الأمـر الـذي يظهـر لنـا الخلـل الأول في مثـل هـذه التنظيمـات، والـتي تحدوهـا أحـلام شـيطانية بالنفـوذ والقـوة وحـب الزعامـة، أكـثر منهـا تطبيقـا لمـا يسـمونه بالشريعـة.

عالم الإسلام الرحب

(والفتنة أشد من القتل)

قتل الإنسان هو أكبر فعل إجرامي عرفه التاريخ ورفضته الأديان، وهو أكبر ضرر يقع على الجميع؛ فليست هناك مصيبة أكبر من الموت... لكن الله جعل الفتنة أكبر وأشد وأكثر خطورة، حتى صارت هي الضرر الأكبر، واجب الدفع أمام ضرر أقل هو القتل.

والفتنة أن يُحرم الإنسان من حريته في اختيار دينه؛ حريته في القناعة والإيمان والعبادة، وأن يحرم من حياة آمنة مستقرة هادئة وسط أهله، لا يعتدي عليه فيها أحد أو يطوله بالأذى والضرر، ويضيق عليه ويتعمده بالتهديد والمخاطر.

تلك هي الفتنة التي تفوق القتل والموت.. . فالحياة بلا حرية وبلا حياة آمنة على المال والأهل، لا قيمة لها، وباطن الأرض أكثر شرفاً وستراً. ومن أجل درء هذه الفتنة، شرع الله القتال.

لو فهمنا هذه الجملة، نستطيع فهم كل آيات القتال في القرآن، وكل آيات العنف والتحريض على الاستبسال في الحرب... من أجل دفع الفتنة. ولو نزعنا الآيات عن سياقها وهدفها واقتطعناها من العلل والغايات، تولد لنا انحرافات لا طائل منها، وتطرف إلى إحدى الجهتين. التخلي عن الدين بالكلية، ظلماً وجهلاً، أو التحول إلى إرهابيين سفاحين مشوهين نفسياً باسم الرب. يقاتلون الناس من أجل سبب ما، غالباً لا يعرفونه..!

ودليل ذلك، أن الله قال عن المستضعفين الذين جاء القتال تشريعاً أوليًا في حقهم: (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا).



لـولا دفـع الله النـاس بعضهـم ببعـض؛ أي لـولا حركـة النـاس التدافعيـة فيمـا بينهـم لـرد الظلـم وردع العـدوان، لتهدمـت بيـوت الله في الأرض... والآيـة لـم تضمـن الحفـظ للمسجد بوصفـه بيـت المسـلمين فقـط، بـل قـال: «صوامـع وبيـع وصلـوات»، وهـي بيـوت عبـادة اليهـود والنصـارى والصابئـة؛ أي بيـوت عبـادة الأديـان المحيطـة بالإسـلام، فهـو جـاء بالعصمـة لبيـوت عبادتهـم، وأقـر ذلـك في القـرآن إلى جـوار المسـاجد، بـل جـاء المسـجد في الترتيـب الأخـير.

وكل تشريعـات القتـال في القـرآن مرتبطـة بـرد الظلـم، وحمايـة الأرض والولـد، وضمـان حيـاة آمنـة للنـاس، حرمـوا منهـا طويـلاً في ظـل سـفاحين لا يرحمـون وطغـاة يفرضـون السـلب والقتـل. وجـاء القتـال ردّاً عـلى هـذا النمـوذج - كغـرض مؤقـت وحالـة اسـتثنائية عابـرة- وليسـت رايـة مرفوعـة على كوكـب الأرض تبغـي القتـال بـلا سـبب، وتنـوي قتـال كل شيء حـتى رمـال الصحـراء وأوراق الشـجر والمجـرات الخارجيـة.

إن بـني إسرائيـل حينمـا قالـوا لنـبي لهـم: ابعـث لنـا ملـكا نقاتـل في سـبيله، فقـال لهـم: هـل عسـيتم إن كتـب عليكـم القتـال ألا تقاتلـوا... فـكان ردهـم: (وَمَا لَنَـا أَلا نُقَاتِـلَ فِي سَـبِيلِ اللَّـهِ وَقَـدْ أُخْرِجْنَـا مِـنْ دِيَارِنَـا وَأَبْنَائِنَـا). فالقتـال مرتبـط في أذهانهـم، كمـا هـو في آيـات القـرآن، بأنـه رد عـلى مـا تعرضـوا لـه مـن ظلـم في ديارهـم وأبنائهـم، وليـس فعـلاً هجوميـاً أو عدوانيـاً عـلى أحـد، وهـو وسـيلة لعـودة الحيـاة إلى طبيعتهـا الآمنـة المسـتقرة، والـتي ينعـم فيهـا الجميـع بالسـلام دون تهديـد أو خـوف. القتـال هنـا لاسـتعادة السـلام وحمايـة النـاس ورفـع جـودة الحيـاة، ليـس هدفـاً، بـل وسـيلة، ووسـيلة لغايـة شريفـة، وليـس لمـا في النفـوس مـن همجيـة وعنـف.

ولاحـظ أنهـم ربطـوا بـين سـبيل الله والقتـال فيـه، وبـين الأرض والولـد والـدار.. فسـبيل الله هـو العمـارة والحيـاة والتنميـة، وضحكـة الأولاد وظـلال البيـوت، وليـس تشريـد الشـعوب بالملايـين، كمـا حـدث تحـت رايـات الجهـاد مـن الصومـال إلى أفغانسـتان، وحـتى العـراق.

ذهب الأحناف وجماعة من الشافعية أن أي دار/ بلد يضمن فيها المسلم عبادته، ويأمن فيها على نفسه؛ فهي دار سلام وإسلام، حتى لو كان حاكمها غير مسلم

وحـدد الله ذلـك بوضـوح: (وَقَاتِلُـواْ فِي سَـبِيلِ اللّـهِ الَّذِيـنَ يُقَاتِلُونَكُـمْ وَلاَ تَعْتَـدُواْ إِنَّ اللّـهَ لاَ يُحِـبِّ الْمُعْتَدِيـنَ)، وهـي آيـة مدنيـة؛ أي نزلـت بعـد الهجـرة إلى المدينـة، حيـث تأسسـت بـذور دولـة بدائيـة وجيـش صغـير، وهـي ضابطـة لطبيعـة القتـال ودسـتور للجيـش. نقاتـل مـن قاتلنـا ليـس أكـثر، وكل سـلوكنا محـدود ومرتبـط بكلمـة «ولا تعتـدوا»؛ فـالله نهانـا عـن الاعتـداء عـلى كافريـن محاربـين، والله لا يحـب المعتديـن، حـتى لـو اعتـدي عـلى أحـد مـن الكافريـن دون مـبرر القتـال، ونبـذ الحـب مـن الله هـو أكـبر عقوبـة بالمناسـبة.

الخلاصـة، إن القتـال جـاء كتشريـع للمسـلمين وغيرهـم في القـرآن ردّاً عـلى الاضطهـاد والظلـم، وردع الطغـاة والسـفاحين واللصـوص، وليـس خروجـاً طائشـاً لهـدم البـلاد وترويـع النـاس، وجـاء لرفـع جـودة حيـاة الإنسـان والوصـول إلى غايـة منشـودة؛ الحريـة الدينيـة وأمـان البـلاد. وجـاء كوسـيلة وليـس غايـة؛ فلـو تحققـت الغايـة، دون تلـك الوسـيلة، لسـقطت الوسـائل، وسـقط القتـال.

لذلـك، ذهـب الأحنـاف وجماعـة مـن الشـافعية أن أي دار/ بلـد يضمـن فيهـا المسـلم عبادتـه، ويأمـن فيهـا عـلى نفسـه؛ فهـي دار سـلام وإسـلام، حـتى لـو كان حاكمهـا غـير مسـلم.

وبذلـك، تكـون كل الأرض دار سـلام وآمـان وإسـلام، عـدا مـا تسـيطر عليـه داعـش والقاعـدة، وبوكـو حـرام، وأنصـار الشريعـة؛ فهـي دار خـراب وخـوف وفـزع... وهـي دار كفـر..! فمـن حيـث بـدؤوا تطبيـق الشريعـة بترويـع النـاس وتخريـب الدنيـا، بـدأ الكفـر.



بقلم: عادل الطاهري
أكاديمي مغربي متخصص
في التاريخ والحضارة.

«داعش»... «قُلْ هُوَ مِنْ عِنِدِ أَنْفُسِكُم»

«داعش» صناعة داخلية بالأساس، ونرى أن المزج في نسق تكاملي بين العوامل المادية والفكرية، جدير بتقديم تفسير للخلفيات الثاوية وراءها. إنه في الغالب – وليس دائماً – يكون الفكر إفرازا لبنية تحتية، والدين كفكر يعبر بلغة مواربة، خاصة في حالات العنف، عن تمرد ورفض للواقع.

ثار العرب في مستهل العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين مرّتين؛ في الجولة الأولى كانت الثورة حُلماً أخضر، حمله شباب متشبع بفكر حداثي مؤمن بقيمة الإنسان ومركزيته، بينما كانت «الثورة/الفتنة» الثانية كابوساً لحُدثاء أسنان، يجرون معهم فكراً قد استنفد كل إمكانات تأويله، بَدءه الأول إلغاء الإنسان، ونفيه هناك بعيداً حيث مملكة أشباح الآلهة الزائفة...

لا علينا من تفسير أسباب الثورتين، وإن كان من البدهي أن بوار ثورة الحداثة يرجع بالأساس إلى انتعاشة الفكر، الذي يحمله «حُدثاء الأسنان»، إنما يُهمنا أن نبحث عن الجذور التي أنبتت «داعش»، ذلك التنظيم الذي لفت الاهتمام وسرق الأنظار، عندما كُنا نضمد جروحنا، جروح كساد الربيع.

> في الغالب –وليس دائماً– يكون الفكر إفرازا لبنية تحتية، والدين كفكر يعبر بلغة مواربة، خاصة في حالات العنف، عن تمرد ورفض للواقع

في البداية؛ لنلق نظرة عن مُجمل ما يُقال في تفسير ظهور داعش، إننا نواجه ثلاث أطروحات متباينة، تنحو الأولى في اتجاه الخط التآمري؛ أي إنها ترفض رفضاً باتّاً مطلقاً، أن تكون داعش بضاعة محلية نبتت لأسباب ذاتية، بينما تلقي الأخرى باللائمة على الذات، سواء كأوضاع سوسيو اقتصادية سياسية، أو فكرية براديغمية.

من حيث المبدأ، نحن نقلّل من شأن العوامل الخارجية، مهما كان تأثيرها في إثارة زوبعة



داعـش، فلـولا أن «داعـش» كان حـاضراً «بالقـوة» - بالدلالـة الفلسـفية للمفهـوم - في مجالنا التـداولي العـربي، لما استطاعت جهـات خارجيـة متآمـرة أن تفرضهـا «بالفعـل». إن الإنسـان، في آخـر المطـاف، كائـن مريـد، وإرادتـه تنبعـث مـن محـض اختياره، ومـن الصعـب، بـل مـن المسـتحيل، في الحـالات الطبيعيـة أن تسـوق الإنسان إلى المـوت أو المخاطـرة بحياتـه، في غيـاب سند شرعـي، ميتافيزيقـي في غالـب الأحيـان.

مـن هنـا، فـ«داعـش» صناعـة داخليـة بالأسـاس، ونـرى أن المـزج في نسـق تكامـلي بـين العوامـل الماديـة والفكريـة جدير بتقديـم تفسـير للخلفيـات الثاويـة وراءهـا. إنـه في الغالـب – وليـس دائمـاً- يكـون الفكـر إفـرازا لبنيـة تحتيـة، والديـن كفكـر يعـبر بلغـة مواربـة، خاصـة في حـالات العنـف، عـن تمـرد ورفـض للواقـع، هـذا مـا يتبنـاه عزمـي بشـارة، إذ يقـول: «لا السـلفية الجهاديـة ولـدت اليـوم، ولا نسـختها الداعشـية الدمويـة الـتي بـرزت في قسـوتها جميـع التيـارات وليـدة السـنوات الثـلاث، ولا يمكـن فهمهـا مـن دون فهـم الاسـتبداد وأسـاليبه في حـالات، مثـل العـراق وسـوريا»[١].

لا يخلـو الـتراث مـن شـواهد تعـزز هـذه الرؤيـة، فلـئن كان التراثيـون في الغالـب يتمسـحون بالفكـر الخارجـي، لتفسـير جـذور العنـف داخـل النسـق الإسـلامي، وبالضبـط ينطلقـون مـن شـخصية «ذو الخويـصرة»[٢] الـذي أعلـن تمـرداً عـلى النبي، عندمـا كان بصـدد تقسـيم الغنائـم، فـإن هـذه الحادثـة غنيـة بالـدلالات؛ فالتمـرد عـلى قـرار نبـوي هنـا يرجـع إلى مظنـة غيـاب العدالـة الاجتماعيـة والتقسـيم العـادل للغنائـم، إنـه حتمـاً ليـس سـبباً دينيـا محضـاً هـو الـذي نبـه في «ذو الخويـصرة» النزعـة التطرفيـة، بـل عوامـل اقتصاديـة اجتماعيـة. مـن هنـا، فالطـرح الـذي يجعـل مـن «داعـش» إفـرازاً اجتماعيـاً لوضـع سـياسي موبـوء، تغيـب فيـه أدنى مـؤشرات العـدل والمسـاواة، لـه وجاهـة معتـبرة.

لكـن، وكمـا قُلنـا، نحـن ننطلـق مـن نمـوذج تفسـيري يجمـع بين المحدديـن المـادي والفكـري؛ فالعوامـل السياسـية وحدهـا غـير كافيـة لتفسـير حـدث جلـل كظهـور» داعـش»، مـن هُنـا تـبرز ضرورة إلقـاء نظـرة عـلى أدبيـات داعـش الفكريـة، لمحاولـة تشـكيل رؤيـة متكاملـة عـن التنظيـم.

إن تراثنا الفقهي يعج بالأحكام التي طبقت في كثير من الأحيان ذات الطابع الاستئصالي والرافض للآخر

لقـد اعـترف مُنظـر تيـار «الإسـلام السـياسي» الشـيخ يوسـف القرضـاوي أن أمـير التنظيـم «أبـو بكـر البغـدادي» كان إخوانيـاً، ينتمـي إلى جماعـة «الإخـوان المسـلمين»[٣]، ولعـل في هـذا «البـوح» دلالات غنيـة، كفيلـة برفـع النقـاب عـن المرجعيـات الـتي يمتـح منهـا تنظيـم «داعـش»، فالفكـر القطـبي

١- عزمي بشارة، من يقف خلف داعش؟ سؤال سخيف، مقال منشور في «العربي الجديد»، بتاريخ ٢٠١٤/٠٨/٠٦

٢- في صحيح البخاري «سيخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يتجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

٣- انظر: شريط منشور على موقع «العربية نت»، بتاريخ ١٤ أكتوبر ٢٠١٤

– نسبة إلى سيد قطب- ذو نزعة تكفيرية شديدة الغلو، لقد انتقد سيد قطب بشدة الفقهاء الذين يصدرون فتاوى فقهية في نظام سياسي لا يعترف بمبدأ «الحاكمية» ويُعدُّ ذلك ضرباً من استنبات البذور في الهواء، إن الأولوية في نظر قطب هي إقامة دولة، تعترف مبدئياً بحاكمية الله، باعتبارها من أخص خصائص الألوهية، من هنا فثمة «حزب واحد فقط لله لا يتعداه، وأحزاب كلها للشيطان وللطاغوت»[٤]، وهذه النبرة الاستئصالية الطوباوية الطاغية في خطاب قطب هي ذاتها نجدها في الخطابات الداعشية على قلتها، فهي ترفض رفضاً باتاً كل الطواغيت، وتُبشر بدولة الخلافة التي ستكون الأساس للحاكمية الإلهية.

وهُنا يثار سؤال آخر؛ هل كان سيد قطب نفسه (المنظر الأكبر)، تربى جيل كامل من الحركات الإسلامية على فكره «يستنبت بذورا في الهواء»، أم إنه اتكأ على تراث متراكم مكتظ بالأحكام الفقهية ذات النزوع العنيف والصدامي؟

إنه من غير شك، أن تراثنا الفقهي يعج بالأحكام التي طبقت في كثير من الأحيان ذات الطابع الاستئصالي والرافض للآخر؛ وخاصة تلك المرجعيات التي نهل منها الخطاب السلفي المعاصر، فهذا الفكر بنية عنف صامتة قابلة للانفجار في فلتة من القانون، هل نحتاج إلى شواهد؟

٤- سيد قطب، معالم في الطريق، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٣٦



في الحقيقة، النص القرآني في غياب قراءة تاريخية واعية، تميز فيه بين «الذاتي» و«العرضي»، بين القابل للتطبيق والموقوف، يمكن أن يسهم في تفريخ هذه النزعة؛ فالقرآن نزل في أوضاع مختلفة، منها حالات حرض الله تعالى فيها المؤمنين على القتال وتصفية الآخر المختلف دينياً لسياقات تاريخية تبرر تماماً الفعل، وفي غياب القراءة الزمانية للقرآن، تصير هذه الآيات مادة خصبة، يجد فيها التطرف مساغاً لنزوعه النفسي.

كما أن المادة الحديثية التي تضخمت عبر الزمن، ممتلئة بالنصوص التي تنفي التعددية الفكرية، وتجعل الحق أحادي الوجه، دوننا مثلا حديث «الفرقة الناجية»، ولنقرأ هنا هذا النص الدال لعبد القاهر البغدادي صاحب «الفَرق بين الفِرق»، يقول في سياق بسطه للكلام عن هذا الحديث: «وقد علم كل ذي عقل من أصحاب المقالات المنسوبة إلى الإسلام أن النبي صلى الله عليه وسلم، لم يُرد بالفرق المذمومة التي هي من أهل النار فرق الفقهاء»[٥]. نص ناطق بنفسه عن منطوقه، يلغي مشروعية أي تأويل آخر للعقيدة (عدا الفقه)، وكتحصيل حاصل كل الفرق الإسلامية التي تشكلت في إطار الجدل السياسي، والذي اتخذ شكل جدل ديني لاهوتي، كُفار من أهل النار، بما في ذلك الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية والمعتزلة.

> لا يتبنى تنظيم «داعش»، فكراً خارجياً كما هو شائع، ولهذا جاز لنا أن نرى فيه تعبيراً صادقا لقول الله تعالى: «قُلْ هُو مِن عِنْدِ أَنْفُسِكُم»

٥- عبد القاهر البغدادي، الفَرقُ بين الفِرق، تحقيق محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٤، ص ص ١٢-١٣



ذات الاتجاه الإقصائي المحرض، نجده في كتابات ابن قيم الجوزية، وهو أحد المراجع المهمة للفكر السلفي، إضافة لشيخه ابن تيمية؛ فالإمام ابن القيم يحكم في فلتات قلم معبرة عن تكفيره للطوائف الإسلامية، فيقول عن أهل الرأي: (وهم المعتزلة، وكل الفرق التي توسعت في مدخلية العقل كأساس لفهم الدين) «وأكثر أصحاب الجحيم هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم ولا عقل، بل هم شر من الحُمر»[٦].

هذا نزوع كلياني إلى التكفير، يتخذ من الحكم على المستقبل الميتافيزيقي هناك سبيلا للإقصاء هنا. أما التنظيرات الجزئية، فيمكن أن نجد في كتابات ابن تيمية موسوعة متكاملة من الأحكام التي تتوافق تماماً مع التطبيق الداعشي للإسلام، سواء فيما يتعلق بالمختلف «القريب» المنتمي إلى الإسلام، أو الآخر من «أهل الذمة»، سواء اليهود والنصارى، أو في موقفه التحقيري للمرأة أو غيرها من «الداعشيات» المعروفة[٧].

من هنا، فتنظيم «داعش»، لا يتبنى فكرا خارجياً كما هو شائع، فقد تعرض هذا الفكر على مر التاريخ للكثير من الحيف، وجُعل ذلك الحائط القصير السهل التسلق، والذي تُمسح فيه كرقعة بالية كل الدماء التي تُراق، هل كان ابن قيم الجوزية خارجياً، عندما أشاد بذبح خالد القسري لـ «جعد بن درهم» حيث يقول في نونيته:

ولأجل ذا ضحى بجعد خالد القسري
يـــــوم ذبائـح القـــربـان
إذ قال إبراهيم ليـــــس خليله
كــــلا ولا موسى الكليم الداني
شكر الضحية كل صاحــب سنة
لله درك مـــن أخـــي قـــربـــان

من هُنا، وتماشياً مع الفلسفة القرآنية في تحميل مسؤولية كل المصائب التي تحيق بالإنسان بالذات، جاز لنا أن نرى في تنظيم «داعش» تعبيراً صادقا لقول الله تعالى: «قُلْ هُو مِن عِنْد أَنْفُسِكُم» [آل عمران: ١٦٥]، لكن يبدو أننا لا نستفيد من عبر التاريخ بالعبارة الخلدونية الأثيرة، فإلى عهد قريب، عندما كان الدولة السعودية تبحث عن موطئ قدم راسخة، لتثبيت حكمها والتخلص من خصمها حليف العثمانيين يومئذ «آل الرشيد»، استقطبت «البدو»، وبنت الهُجر وعبأتهم بالعقيدة الوهابية، وشحنتهم بأدبياتها وأقنعوهم من خلال شيوخ سلالة «آل الشيخ»، أن كل الدول التي تحيط بهم كفرة، وسمتهم «إخوان من طاع الله»، وذات مصالح سياسية ستغير الموقف السعودي من الدول المجاورة، وهنا سينقلب السحر على الساحر، فـ «إخوان من طاع الله»، ذلك الجيش البدوي الشرس الذي يأتي على الأخضر واليابس، سيظل وفياً لما لُقّن من أدبيات رافضة للولاء للآخر وداعية للبراء، وسيتمرد على ذات السلطة التي رعته...

إنه مكر التاريخ في أبهى تجلياته.

٦- ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، ج١، ص ٧٠

٧- يُنظر في تنظيرات ابن تيمية التي تتوافق مع السلوك الداعشي. رائد السمهوري، نقد الخطاب السلفي: ابن تيمية نموذجاً، طوي للثقافة والنشر، بيروت، ٢٠١٠، ط١

المخارج النظرية والعملية الكفيلة بالتصدي للظاهرة الداعشية



د. عبد اللطيف الحناشي
أستاذ التاريخ المعاصر
والراهن، تونس.

هناك صعوبة جمة في تحديد مخارج نهائية وكاملة للتصدي لهذه الظاهرة المركبة والمعقدة؛ ومع ذلك؛ فالأمر يتطلّب تضافر مقاربات متعددة الأبعاد والمستويات، يتداخل فيها الثقافي بالاجتماعي والتربوي بالتعليمي والعائلي، والإعلامي بالأمني والحسم العسكري، باعتبار الطبيعة العنيفة لهذه الظاهرة.

يمثل تنظيم داعش «الدولة الإسلامية» مشروعاً شمولياً على المستوى الفكري، وتوسُّعياً على المستوى الجغرافي. يدعي التنظيم أنه يمتلك التفسير الصحيح الوحيد لأصول الدين كما يدعي أنه يمثِّل دولة المؤمنين التي يسعى إلى تأسيسها، ويعتبر جميع المسلمين الذين يفكِّرون بطريقة مختلفة عنه أو الذين ينتمون إلى الطوائف الأخرى، غير الطائفة التي يدعي تمثيلها،كفّاراً غير مؤمنين. أما أتباع الديانات الأخرى، فقد يحتمل وجودهم في أحسن الأحوال مقابل دفعهم الجزية.

يعد هذا التنظيم مشروعاً معقداً ومركّبا؛ فقد اعتمد منذ انبعاثه على العنف والإرهاب لتحقيق مآربه، سواء لتصفية مخالفيه والمتصدين له، أو للسيطرة على مصادر الطاقة وعلى الحدود الدولية... لذلك يمكن اعتباره مشروعاً معقّداً ومركبا؛ إذ تتطلب عملية التصدي له أولاً تحديد العوامل التي ساعدت هذا التنظيم على التمدد الجغرافي والتضخّم البشري، ومن ثم تحديد المخارج الممكنة للتصدي لهذه الظاهرة من أجل محاصرتها، وتقليص حجم انتشارها، حتى التمكن من القضاء عليها....

بداية، لا بد من التأكيد أن هذه المجموعات تستهدف أساساً فئة الشباب من أقطار عربية فقيرة، وأخرى مرفّهة ومحافظة، ومن مناطق الاغتراب الأوروبي، والتي تشكل الخزّان البشري لداعش، ولغيرها من المنظمات «الجهادية التكفيرية» الناشطة في غير مكان، وخاصة في كل من العراق وسوريا، حيث تقود حرباً على الدولة ومختلف أجهزتها، وعلى الأقليات الدينية والقومية وهدفها السيطرة على تلك المنطقة، وإقامة ما يطلق عليه بالدولة الإسلامية.

تقف وراء هذه الظاهرة عوامل عدة متداخلة؛ اقتصادية واجتماعية ومادية وفكرية وثقافية محلية ودولية، ومن ذلك:

توفّر مقومات بيئة حاضنة: وتتمثّل خاصة في الإحباط النفسي لدى الشباب، وانتشار الفقر والبطالة والتهميش واليأس والاغتراب الحضاري(بالنسبة للعرب والمسلمين المقيمين في بلدان غير إسلامية)، وتدني نسبة التمدرس وارتفاع نسبة الأمية، واتساع الفراغ الفكري الذي يتجسّد في عدم وجود مشاريع فكرية وثقافية، تستهوي فئة الشباب للتفاعل معها إيجابياً.

توفر الدعم «النظري والشرعي»: إذ كشف تقرير أمريكي عن قائمة تضم نحو ١٣١ اسماً، يوفرون «الدعم الشرعي» للحركات الجهادية والمجاميع المسلحة، ويبررون أفعالها، ومن هؤلاء أكاديميون وناشطون ورجال دين، ينتمون إلى (٣١) دولة من مختلف أنحاء العالم.

تفكك الجيوش الوطنية والأجهزة الأمنية: كما حدث في أفغانستان والعراق وليبيا واليمن، الأمر الذي أدى إلى انحسار دور الدولة الأمني أو غيابه تماماً، فانتشرت الفوضى وتوسعت، فاستغل المتطرفون المنظمون هذا الفراغ، بينما أسهم تفاقم الحرب الممتدة في سورية، والصراعات الطائفية في العراق واليمن في تهيئة الظروف المساعد، لسيطرة تلك التنظيمات على السلاح، واحتلال المؤسسات والمجال عامة... وبالتوازي مع انتشار العنف ضد الدولة بأشكال مختلفة، ونتيجة لضعف تلك الدول، وتساهل دول أخرى جارة لها، أصبحت الحدود سهلة الاختراق أو مفتوحة تماماً أمام تدفق المقاتلين الأجانب من كل الجنسيات على تلك المناطق للإسناد و«الجهاد»، بعد أن توفر «الدعم النظري الشرعي».

دور المال: لم يكن بإمكان هذه التنظيمات أن تتوسع وتتمدد لولا توفر الإمكانيات المالية، وإن وفرت تلك الجماعات المال جزئياً عن طريق الاحتطاب، فإن أغلب مصادر تمويلها يتأتّى من التبرعات الخاصة، التي تقدمها الجمعيات الخيرية وبعض الشخصيات الاعتبارية من بعض الدول العربية، والتي تظل المصدر الرئيس لتمويل تلك الجماعات الإرهابية، بالإضافة إلى التبرعات من الدول الباقية حسب التقرير الذي أصدرته وزارة الخارجية الأمريكية مؤخراً...

التحريض الإعلامي: يسعى المتطرفون إلى نشر فكرهم؛ بغرض استقطاب وتجنيد الشباب



من خلال عدة منافذ منها بالخصوص؛ الفضائيات الدينية التي تتضمن برامج دينية مختلفة تنشر الفكر المتطرف، وتحرّض على العنف، وتحتقر الأقليات، وتؤجج الحقد الطائفي، وتصدر «فتاوى الجهاد»، مبررة أفعال القتال والاقتتال.

السياسة الدولية: تورطت بعض الدول، العربية وغير العربية من المنطقة أو من خارجها، في مساندة المجموعات الإرهابية بأشكال مختلفة (المال، السلاح، التدريب، تقديم المعلومات الاستخباراتية، فتح الحدود لقدوم المقاتلين...)، وذلك منذ بروز ظاهرة الأفغان العرب الذين قاتلوا الوجود السوفيتي في أفغانستان، وفي غير ذلك من المناطق(البوسنة والهرسك والشيشان والعراق... وسورية). لذلك يرى الكثير من الكتاب أن الإرهاب تحول اليوم إلى «صناعة دولية معولمة»، لتحقيق أهداف إستراتيجية لصالح دول بعينها...

استخدام التكنولوجيا الحديثة وتوظيفها: على الرغم من «بدائية» أفكار هذه المجموعات، وعدم اعترافها بالمنجزات الحضارية للغرب وقيمه وأفكاره، ورفضها له تماماً غير أنها لا تتوانى في استخدام منتجات تكنولوجيا الاتصال والتواصل الحديثة (الإنترنت والمواقع، والمنتديات، وغرف الدردشة، والبريد الإلكتروني، ومواقع التواصل الاجتماعي)، وتوظيفها للاستقطاب والحشد والتأييد والإيقاع بالشباب، وبث أفكارهم الهدامة وتبرير أفعالهم... كما أسهم لجوء هذه المجموعات «الجهادية التكفيرية» إلى وسائل الإعلام الحديث، في زيادة قدرتها على بسط نفوذها وتوسيع قاعدتها الاجتماعية في العديد من الدول، بعد التغلب على العامل الجغرافي، اعتماداً على تلك الوسائل...

ومن الصعب الحديث أو تحديد مخارج نهائية وكاملة للتصدي لهذه الظاهرة المركبة والمعقدة؛ فالأمر يتطلّب تضافر مقاربات متعددة الأبعاد والمستويات، يتداخل فيها الثقافي بالاجتماعي والتربوي بالتعليمي والعائلي، والإعلامي بالأمني والحسم العسكري، باعتبار الطبيعة العنيفة لهذه الظاهرة...ويمكن في هذا المجال تحديد بعض المخارج الفكرية والثقافية إلى جانب مخارج عملية غير أن تطور هذا التنظيم على الأرض يتطلب آنيا:

أولاً: تنسيقاً أمنياً واستخباراتياً بين الدول العربية جميعها، بهدف منع نشاط عناصر هذا التنظيم وتوابعه في هذا الإقليم أو ذاك، وخاصة ضرورة وقف نزيف هجرة الشباب إلى ساحات القتال؛

وثانياً: تدخلاً عسكرياً، عربياً، مباشراً حتى لا يتمدد التنظيم جغرافياً على حساب دول أخرى على الحدود العراقية والسورية...

وباعتبار أن أصل الإرهاب، السياسي، هو في الأصل عنف فكري واعتقادي، على أساس أن الفكر يولد السلوك ويحدّد شكله ومداه، فإن عملية التصدي لهذه الظاهرة يجب معالجتها، من خلال إقامة استراتيجية واضحة تعتمد على:

يعد تنظيم داعش مشروعاً معقداً ومركّبا؛ فقد اعتمد منذ انبعاثه على العنف والإرهاب لتحقيق مآربه

قراءة تاريخية لأصل التطرف الفكري ونشأته، وأهم رموزه وأهدافه ومقرراته ووسائله وأساليبه ومحاضنه.

تفكيك الجذور الفكرية التي يستند عليها الإرهاب ويتغذى منها وذلك بالاعتماد على علماء الدين المتمكّنين والمتعمّقين، العارفين بتفاصيل وخصائص الشريعة ووسطية الإسلام السمح، والتي تعد سمة ثابتة وبارزة في الاعتقاد، والتشريع، والتكليف، والعبادة، والشهادة... ولا يمكن للعالم أن يتصدى لفساد وبطلان فكر الغلو والتطرف، ما لم يكن مقتنعاً لدرجة اليقين بفساد فكر هؤلاء، مالكاً لأسلوب بيداغوجي يعتمد الحجة والدليل وقوة الإقناع الحقيقي...



ومن الضروري، في هذا المجال، إعطاء الفرصة لهؤلاء العلماء لاعتلاء منابر العبادة لتعزيز الوسطية والاعتدال، واحترام التنوع الفكري والتعايش السلمي بين أتباع الأديان السماوية بالتوازي، مع فتح أبواب المنابر الإعلامية المختلفة، لهؤلاء العلماء، وخاصة الفضائيات ومساعدتهم على نشر أفكارهم وتفاسيرهم في مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة...

وعلى الرغم من أن معتقدات الناس وأفكارهم لا علاقة لها مباشرة بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، في ما يتعلق بالتشدد والمغالاة، فإن قطاعاً واسعاً من الشباب بحكم واقع التهميش الاجتماعي وأحياناً النفسي والقيمي، يجد نفسه منجذباً لأفكار التطرف والإرهاب. لذلك، من الضروري التأكيد على تحقيق التنمية المستدامة بمفهومها الشامل (الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والرياضية...)، وتوفير مواطن الشغل للشباب وتحفيزه على العمل والعطاء، وحبّ الحياة من خلال مساعدته على فتح آفاق جديدة لتحقيق ذاته والتصالح مع مجتمعه....

من الصعب الحديث أو تحديد مخارج نهائية وكاملة للتصدي لهذه الظاهرة المركبة والمعقدة؛ فالأمر يتطلّب تضافر مقاربات متعددة الأبعاد والمستويات

الدور الفاعل للمؤسسات التربوية: ومنها المدارس والجامعات، وأهمية هيئاتها التدريسية في إيصال الرسالة التربوية الواضحة للطلاب، من خلال تعزيز مهارات الاتصال، وتعزيز ثقافة الحوار والتسامح وقيم المواطنة، وقبول الآخر بما يسهم في الارتقاء بالوعي الوطني، وتعزيز القيم الإيجابية، وتنمية الشخصية المتوازنة للشباب المتعلّم، ونبذ العنف والتطرف، والمحافظة على الهوية الثقافية للمجتمع بما يتلاءم والتطور التقني والتكنولوجي الهائل، وتوظيفها لتحقيق هذا الهدف، بالتوازي مع تطوير المناهج الدراسية التي تُعنى بالمشاريع والنشاطات المختلفة، والتي تُنمّي القدرات الابتكارية والإبداعية لدى الطلاب، وتراعي شخصية الفرد بجميع جوانبها وأبعادها، مع التوازن في تربية الجوانب المختلفة: العقلية، والمعرفية، والوجدانية...

ولمواجهة ثقافة الإرهاب والتطرف، لا بد من نشر الثقافة الديمقراطية القائمة على الانفتاح واحترام الرأي الآخر، وعلى الحرية والعدالة وتأصيل الثقافة الشاملة، ونشر الثقافة الإسلامية التي تدعو إلى التراحم والتسامح والمحبة والتعايش والإخاء، والعمل على مواجهة ثقافة الفتنة والتطرف.

الإجراءات:

إعادة هيكلة المؤسسات الدينية الرسمية، وعزل رموزها التي تدعو إلى التطرف، أو على الأقل تأهيلها، وفتح المجال أمام الكفاءات القادرة على تقديم خطاب ديني متسامح معتدل متحرر،

يتفاعل مع قضايا الإنسان المعاصر وهمومه المادية والثقافية.

العمل على إيجاد مراكز بحوث اجتماعية أمنية، لمتابعة مثل هذه الجماعات والخلايا المتطرفة والتكفيرية وتوعية المجتمع حول كيفية تلافيها وعلاجها...

عقد الندوات والمؤتمرات العلمية التي تهتم برصد وتشريح الأسس الفكرية والدينية، التي تستند إليها وعليها تلك المجموعات، وتحليل بياناتها السياسية والطرق المُعتمدة من قبلها، لاستهداف الشباب، وتنظيم الندوات الثقافية التوعوية العامة التي يشارك فيها أهل الثقافة والعلم والعلوم الدينية...

دور القانون والقضاء: ضرورة تشريع قوانين زجرية، لمكافحة كل من ينخرط في أي شكل من الأشكال لدعم الإرهاب، مادياً أو معنوياً، أو لوجستياً أو ممارسته، في داخل الدولة أو خارجها، على أن تراعي حقوق الإنسان الأساسية في ذلك....

دور العائلة: من الضروري أن تكون الأسرة متوازنة ومتماسكة اجتماعياً ونفسيًا للأسرة، الأمر الذي يسمح لها برعاية أبنائها ومراقبتهم، سواء داخل البيت (علاقة الأبناء بالآخر عبر وسائل التواصل الاجتماعي)، أو من حيث نوعية أصدقاء الأبناء في المدرسة والجامع والنوادي....وطرق تمضية أوقات الفراغ.

> داعش وتوابعها مشكلة أمنية وسياسية، وفكرية وثقافية سياسية، لذلك من الضروري، أن تكون هناك معالجة راهنة آنية تتمثل في مقاومتها

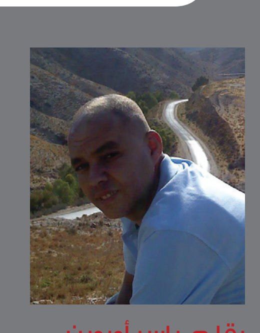
دور المؤسسات التربوية: في تفعيل قيمة الوسطية، وفي بناء الشخصية المتوازنة بجميع جوانبها وأبعادها، وتنمية الجوانب الأساسية في تلك الشخصية: العقلية، والمعرفية، والوجدانية، حتى تبتعد عن الغلو والتطرف...

وسائل التواصل الحديثة: تبث لجميع المهتمين بظاهرة الإرهاب التي تقودها داعش وأخواتها قدرة تلك المجموعات المتطرفة على استغلال وتوظيف وسائل الاتصال الحديثة، لنشر «أفكارها» وأعمالها الإرهابية، بهدف استقطاب المزيد من المريدين والمتطوعين للقتال معها.

لذلك، فمن الضروري أن تقوم الحكومات بمراقبة هذه المواقع (لكشف المنتمين لهذه المجموعات أو المتعاطفين معها أو لتنمية التناقضات والاختلاف بين تلك القوى على مستوى نظري وعملي من أجل إضعافها وتشتيت جهودها)، وإن اقتضت الضرورة حجب تلك المواقع الإلكترونية وقصفها، بمختلف أنواعها («فيس بوك» و«تويتر» و«يوتيوب»)، وتنسيق الجهود بين جميع الدول العربية، لمواجهة هذه الحرب الإلكترونية، كما يمكن استحداث مواقع، أو اختراع مواقع تلك المجموعات، بهدف التعامل مع المتعاطفين مع الإرهاب والإرهابيين في الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، مع إمكانية إنشاء مواقع، ومنتديات إلكترونية شبابية، وبإدارة شبابية، لنشر وتعميم الفكر الديني الوسطي، والتصدّي للأفكار الإرهابية على اختلافها وتنوعها...

تبدو داعش وتوابعها مشكلة أمنية وسياسية، وأكثر من هذا مشكلة فكرية وثقافية سياسية، لذلك من الضروري، أن تكون هناك معالجة راهنة آنية تتمثل في مقاومتها بقوة السلاح وإجهاض كل محاولات التحاق الشباب بها، وفي موازاة ذلك، السعي لتحديد استراتيجية بعيدة المدى تتداخل فيها الأبعاد الفكرية والدينية والاقتصادية والاجتماعية، تشترك فيها الدولة بجميع أجهزتها إلى جانب منظمات المجتمع المدني والأكاديميين والمؤسسات التعليمية والدينية...





بقلم: ياسر أورוين

باحث مغربي متخصص
في العلوم السياسية
وكاتب صحفي.



في السياق السياسي لظهور الظاهرة الداعشية

تنظيم «داعش» نتيجة حتمية للعبة دولية وإقليمية، يتداخل فيها السياسي والعقدي والاقتصادي، في ظل صراع مخفي بعناية حول زعامة العالم، أو على الأقل إعادة تشكيل خريطته السياسية، بناء على ظهور قوى اقتصادية جديدة، وعودة أخرى إلى الواجهة في بحث حثيث عن مصالح اقتصادية وثروات خام، لا يمكن الوصول إليها بدون السيطرة، أو وضع رجل لها في مناطق تواجد هذه الثروات عن طريق تواجد سياسي محكم ومنظم.

تحولت الدولة الإسلامية في العراق والشام المعروفة اختصاراً بـ«داعش»، والذي تحول اسمها مؤخراً بعد إعلان الخلافة الإسلامية، ومبايعة أبي بكر البغدادي إلى الدولة الإسلامية، إلى كابوس حقيقي بكل ما تحمله الكلمة من معنى لكل الأجهزة الاستخباراتية في العالم والأنظمة السياسية الحاكمة، وكذا التنظيمات الجهادية الأخرى، حيث اكتسح التنظيم الجهادي الإسلامي «الدولة الإسلامية» مساحات شاسعة من أرض العراق والشام، وتحديداً سوريا والعراق في زمن قياسي وبشكل مفاجئ، قبل أن يستطيع هذا التنظيم الفتي على الأقل من الناحية الزمنية بناء مشروعية فكرية وميدانية، أذهلت الجميع؛ ففي وقت كانت تتجه فيه جميع التحليلات إلى أن الأمر يتعلق بتنظيم مجهول الهوية ومغامر، يصدم الجميع بسيطرة الدولة الإسلامية على مناطق جغرافية واسعة، وتحوله في رمشة عين إلى رقم صعب في جميع الحسابات المتعلقة بالشرق الأوسط، إن لم يكن بالعالم كله.

فمنذ انطلاق ما تعارف على تسميته بالربيع العربي، ومنطقة العالم العربي تغلي عموماً، والشرق الأوسط خصوصاً، في ظل توازنات سياسية وسقوط أنظمة حاكمة، كانت إلى حد قريب من أعمدة المربعات المتحكمة في الشرق الأوسط، ومن أقطاب النظام الدولي الذي سعى جاهداً إلى التحكم سياسياً في الشرق الأوسط، حفاظاً على مصالح اقتصادية مهمة، قبل أن ينفجر التحالف السابق وتتفرق به السبل في ظل استعصاء سقوط نظام بشار الأسد في سورية، وقبل أن تظهر



«داعش» كفاعل أساسي في جميع الأحداث، حيث تلقى التنظيم الجهادي دعماً مهما من مجموعة من الدول الإقليمية، كبعض الدول العربية وتركيا، حيث جعلت هذه الدول من إسقاط نظام البعث الحاكم في سورية هدفا استراتيجيا لا محيد عنه.

يبدو أن التفسير الاجتماعي السياسي، والتفسير العقائدي الديني غير قادرين وحدهما على استجلاء معالم الظاهرة (الدولة الإسلامية في العراق والشام)، أو الإجابة عن عديد الأسئلة المرتبطة بهذا التنظيم، خصوصاً في ظل تزايد قوته المالية والإعلامية، وكذا تزايد أعداد المنتمين إليه...فالإجابة عن سؤال من يدعم «داعش» من وراء الستار، يعد مجازفة غير محسوبة العواقب، سواء من الناحية الفكرية التحليلية المحضة أو على مستوى الواقع الميداني المتميز بتقلبات غير



مفهومة، وبإنتاج نمط جيد من التحالفات والعلائق غير المبررة نظرياً، حيث يقع كل من يحاول الإجابة عن هذا السؤال في موقع «الرامي» من جهة، ومن جهة أخرى المدافع عن تكتل معين، باعتبار أن وجود طرف سياسي، دول على وجه الخصوص، أنشأ هذا التنظيم، للاستفادة منه في إفشال مشروع الخصوم، بات أمراً مُسلّماً به، وخارج دائرة التفكير والاختبار، فيما هو لا يعدو أن يكون تكراراً لما جرى كثيراً في التاريخ السياسي الحديث، من ناحية استثمار كل طرف ما هو متاح، لتبشيع الخصم السياسي وشيطنته، واعتباره مصدراً لكل الشرور والموبقات.

تحولت «داعش» إلى كابوس حقيقي بكل ما تحمله الكلمة من معنى لكل الأجهزة الاستخباراتية في العالم والأنظمة السياسية الحاكمة



وإذا وقع التمايز داخل الحقل السياسي المشارف لمناطق نفوذ الدولة الإسلامية بين مساند وداعم، مع الإشارة إلى التنسيق الجيّد للنظام السعودي الحاكم مع الأجهزة والمؤسسات الأمريكية من جهة، ومن جهة أخرى محاولة تركيا الوصول إلى لعب دور طلائعي بالمنطقة، ربما تستحضر (تركيا) من خلاله أو تحن للزمن العثماني، حيث الأتراك أسياد المشرق العربي والشمال الإفريقي، كل هذا في ظل تهديد على الأقل على المستوى النظري للهلال الشيعي بزعامة نظام الملالي الحاكم في إيران، حيث أصبح الأخير لاعبًا مميزاً بالمنطقة، وبجميع نقط التوتر المرتبطة بالدول الكبرى، بما في ذلك التهديد الإيراني لإسرائيل، باعتبارها الحليف الاستراتيجي للأمريكان «أسياد» العالم حالياً، في تواجد قوي وملفت لحزب الله اللبناني (الشيعي) بتماس مباشر مع حدود الدولة الإسرائيلية، ومدافع شرس على عرش بشار بسوريا، بموازاة تمدد ملفت للأخير بكل من العراق ومصر وبعض الدول الإفريقية الإسلامية: السودان أنموذجاً.

فكل هذه المعطيات، تعطي شرعية السؤال من يقف وراء تنظيم «داعش»؟ فإذا كان الصراع السياسي المحتدم أنتج تراشقاً في الاتهام بالمسؤولية عن تأسيس هذا التنظيم، بهدف الإدانة، واستثمار المناخ الدولي القلق من تنامي ظاهرة الإرهاب، فإن لنشوء «تنظيم الدولة الإسلامية»، من دون شك، ظروفاً موضوعية، هي التي أدت إلى تشكّل هذا التنظيم ونموه وتمدده، وهي المساحة التي لم تحظ بعد بما تستحقه من تقصٍّ وتحليل.

> إن تنظيم داعش لا يمكن اعتباره تطوراً منطقياً للسلفية الجهادية، ولا امتداداً طبيعياً للمدرسة الوهابية النجدية

برأي الباحث السعودي نواف القديمي، الإجابة عن السؤال المركزي المتعلق بداعمي داعش، تقتضي عدم اعتبار «داعش» تطوراً منطقياً للسلفية الجهادية، ولا بكونها امتداداً طبيعياً للمدرسة الوهابية النجدية، ولا باعتبارها نتيجة متوقعة لتنامي الاستبداد والتهميش، والحروب والبطالة التي سادت دوائر واسعة من المجتمعات العربية، فمن المؤكد أن لنشوء هذا التنظيم علاقة بذلك كله، لكن لا يمكن في أي حال من الأحوال لأيٍ من هذه القوالب التفسيرية أن تقدم إجابات متماسكة لأسئلةٍ كثيرة، ممتدة بحجم الجغرافيا التي بات يهيمن عليها (التنظيم).

ولو نظرنا إلى خريطة المساحات التي يهيمن عليها تنظيم داعش في سورية، لوجدنا أن جميعها مساحات مُنتزعة من الفصائل الثورية، لا من النظام السوري. وفي المقابل، نجد أن النظام السوري تجنب، عمداً، خلال هذا العام، الدخول في أية مواجهات تُذكر، أو قصف المواقع والمدن التي يسيطر عليها تنظيم الدولة الإسلامية (يمكن المقارنة مثلاً قصفه حلب والرقة)، بل كان النظام يتعمّد، كما في شواهد كثيرة، مقاتلة وقصف أية فصائل ثورية تدخل في مواجهات ومعارك مع تنظيم الدولة الإسلامية، وكأنه يخوض معه المعركة نفسها. من جهة أخرى، يمكن ملاحظة مقدار تشدد تنظيم الدولة الإسلامية في هدم كل المراقد والمزارات والأضرحة، حتى تلك التي تُنسب إلى الأنبياء والصحابة، باعتبارها مظاهر شركيّة. لكن، حين تعلق الأمر بضريح جد العثمانيين «سليمان باشا» الموجود داخل سورية، وفي المناطق الخاضعة لتنظيم الدولة الإسلامية، فلم يكتفِ التنظيم بالامتناع عن هدمه، بل سهّل دخول القوات التركية للضريح وحماها. وحتى الآن، تقوم قوات داعش بحمايته، ولم تتعرض له بالهدم.

أما فيما يخص علاقة تنظيم الدولة الإسلامية بالفصائل المسلحة في سورية، ففي وقت تخوض فيه داعش معارك شرسة، لا تخلو من نزعات انتقامية، وإعدامات ميدانية، وقطع رؤوس أسرى، وخطاب تكفيري حاد مع فصائل محسوبة على السلفية الجهادية، مثل جبهة النصرة وأحرار الشام وسواهما، فإن التنظيم، في المقابل، قِبل بمبايعة فصائل مسلحة وولائها، هم

أقرب لقطاع طرق وجباة أموال ومليشيات ارتزاق، وكثيرٌ من هذه الفصائل بايعت تنظيم الدولة الإسلامية، لدوافع مادية، أو للاحتماء بها، من العقاب الذي فرضته عليها الهيئات الشرعية (كما تكرر ذلك مراراً في ريفي حلب ودير الزور وسواهما). ومن الشواهد أيضاً، يمكن أن نذكر قدرة تنظيم الدولة الإسلامية على معرفة المناطق التي تُمثل خطوطاً حمراء لدول مؤثرة، وعدم اقتحامها (كما في أربيل التي تُمثل خطاً أحمر أمريكياً، وبغداد ومناطق الكثافة الشيعية في العراق التي تُمثل خطاً أحمر إيرانياً)، فضلاً عن عدم فتح هذا التنظيم جبهات مع قوات النظام السوري، سوى باستثناءات محدودة، على الرغم من الحدود الواسعة بينهما. لذلك، تجد أن كل المدن التي تخضع، الآن، لسيطرة تنظيم الدولة الإسلامية في سورية، هي مدن مُنتزعة من الفصائل الثورية، ولم تنتزع داعش أية مدينة من النظام السوري، لأنها، في الأصل، لا تخوض معارك معه. وثمة شواهد أخرى عديدة على هذا السلوك المفرط في البراغماتية لتنظيم الدولة الإسلامية.

واستطاع تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وبلاد الشام «داعش»، أن يمتلك قوة عسكرية، ويحقق امتداداً جغرافياً، ويوفر كماً مهماً من التمويل والتسليح، إلى جانب كسب آلاف الأنصار والمقاتلين، حيث يمكن إرجاع ذلك إلى مجموعة من العوامل أهمها، اكتساب التنظيم لشرعية عقدية وميدانية بالعراق، وتفوقه في ذلك على منافسيه من التنظيمات الجهادية السلفية الأخرى، بناء تنظيمه على أساس الإنجازات والانتصارات الميدانية، بدون ارتباط بشرعية القاعدة وباقي القيادات الجهادية الأخرى، إضافة إلى أن سوريا كانت تعرف سيطرة للتيارات العلمانية لوقت طويل، قبل أن تشتعل الحرب، وتمهد لجو عاطفي إيديولوجي قابل لاحتضان أكثر التنظيمات تطرفاً، كذلك يمكن اعتبار التجاء تنظيم «جبهة النصرة» إلى التحالف مع الفصائل الأخرى (العلمانية) المتحاربة مع بشار، مساهماً بشكل كبير في سطوع نجم الدولة الإسلامية التي تتبنى خطاباً سلفياً جهادياً متشدداً، وتدعو إلى تطبيق شرائع الله، وتنفيذ ذلك بكل صرامة على أرض الواقع، مما يمكن من تفسير الأفعال «الشنيعة» والوحشية الكبيرة التي يتعامل بها التنظيم داخل الأراضي السورية، مع الإشارة إلى أن الممارسات «الهمجية» نفسها سبق للتنظيم الجهادي أن مارسها في العراق في بداياته الأولى.

> إن تنظيم داعش نتيجة حتمية للعبة دولة، وإقليمية يتداخل فيها السياسي والعقدي والاقتصادي، في ظل صراع مخفي جيد حول زعامة العالم

في الأخير، يمكن اعتبار تنظيم الدولة الإسلامية السلفي الجهادي نتيجة حتمية للعبة دولة، وإقليمية يتداخل فيها السياسي والعقدي والاقتصادي، في ظل صراع مخفي بعناية حول زعامة العالم، أو على الأقل إعادة تشكيل خريطته السياسية، بناء على ظهور قوى اقتصادية جديدة، وعودة أخرى إلى الواجهة في بحث حثيث عن مصالح اقتصادية وثروات خام، لا يمكن الوصول إليها بدون السيطرة، أو وضع رجل لها في مناطق، تواجد هذه الثروات عن طريق تواجد سياسي محكم ومنظم، من خلال تحالفات جديدة وعلائق يحكمها منطق جديد.



الباحث المغربي سمير الحمادي لمجلة «ذوات»:

الظاهرة الجهادية تعبير اعتراضي متطرف عن بؤسنا العربي والإسلامي

حاوره: منتصر حمادة

الظاهرة الجهادية عموماً، على المستويين المفهومي والتطبيقي، هي، في جوهرها، تعبير اعتراضي متطرف عن بؤسنا العربي والإسلامي في كل مجالات الحياة: تعبير صراعي حاد عن حقائق أزمتنا الحضارية الدائمة والضاغطة والمحرجة. وطالما أن هذه الأزمة مستمرة بلا أفق أو حل، بل هي ماضية في التطور والتراكم والانتشار، لا يمكن أن نتصور اختفاء "داعش" وغيرها من التعبيرات الجهادية المتطرفة.

أكد الباحث المغربي سمير الحمادي، أن العامل العقدي (الجهادي)، على أهميته، ليس كافياً وحده لشرح صعود «داعش» على هذا النحو الكاسح، والذي جعلها تسيطر على مناطق واسعة في العراق وسورية، وتمحو الحدود بين البلدين لأول مرة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر، مضيفاً في هذا الحوار أن الصورة بالغة التعقيد، ولا يمكن النظر إليها من هذه الزاوية فقط، ومن هنا أهمية استحضار مجموع العوامل والتفاعلات التي تفسر هذا الصعود بشكل أكثر واقعية.

وأضاف الباحث المتخصص في الحركات الإسلامية «الجهادية»، أن الظاهرة الجهادية عموماً، على المستويين المفهومي والتطبيقي، هي، في جوهرها، تعبير اعتراضي متطرف عن بؤسنا العربي والإسلامي في كل مجالات الحياة: تعبير صراعي حاد عن حقائق أزمتنا الحضارية الدائمة والضاغطة والمحرجة. وطالما أن هذه الأزمة مستمرة بلا أفق أو حل، بل هي ماضية في التطور والتراكم والانتشار، لا يمكن أن تتصور اختفاء «داعش» وغيرها من التعبيرات الجهادية، بنسقها الاعتقادي (التكفيري)، وبحواملها الفكرية / الأيديولوجية (العنفية)، من هذه المنطقة.

*** في البداية، ما هو المدخل الذي يمكن في إطاره قراءة ظاهرة "تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام" (داعش): هل نحن أمام ظاهرة خاصة أم حالة تتحرك ضمن حدود سياق ما؟**

- إن "القاعدة" وتفرعاتها من الحركات الجهادية التي كانت تواجه أزمة بعد انتكاس تجاربها في جبهات متعددة، وتراجع تأثير خطابها التعبوي، نجحت بسرعة في التكيف مع المعطيات الجيوسياسية الجديدة التي أفرزتها الثورات العربية، وهذا على عكس ما كان متوقعاً، إذ إن كثيراً من المحللين قدّروا أن هذه الثورات تمثل إعلان الوفاة الرسمي لأحلام المشروع الجهادي في المنطقة، بعد أن أسقطت الجماهير أربعة من أنظمة الاستبداد العربي بلا أفكار راديكالية وبلا عنف، لكن الذي حدث أن الجهاديين تجاوزوا لحظة الصدمة، ونجحوا في مواكبة التحولات الجارية والتفاعل معها، وكما فعل الإخوان المسلمون والسلفيون، عملوا على استغلالها و"التربح" منها، على النحو الذي يمنحهم مواقع أساسية داخل مشهد التغيير.

> **الظاهرة "الإسلاموية"، ومنها التيار الجهادي، في الزمن الثوري العربي**

لذلك، من المهم جداً قراءة ظاهرة "داعش"، لا كحالة خاصة منفردة ومعزولة، ولكن في سياق صعود الظاهرة "الإسلاموية"، ومنها التيار الجهادي، في الزمن الثوري العربي.

إن ما يحدث مع "داعش" في العراق وسورية، ومع "أنصار الشريعة" في تونس وليبيا، ومع "قاعدة جزيرة العرب" في اليمن، ومع "أنصار بيت المقدس" في سيناء المصرية، فضلاً عن تصاعد نشاط مجموعات أخرى في منطقة الساحل والصحراء (القاعدة في المغرب الإسلامي، أنصار الدين، التوحيد والجهاد في غرب إفريقيا) تحاول الاستفادة من توترات اللحظة لتعزيز نفوذها، هو الوجه الآخر للثورات العربية: الوجه السيئ الذي لا مناص من مواجهته.

أعتقد أن التحليل على هذا المستوى، سيكون مفهوماً بشكل جيد.

> **من المهم جداً قراءة ظاهرة "داعش"، في سياق صعود إن التنظيمات الجهادية، فضلاً عن قدرتها على اللعب بورقة الطهرانية الدينية، على التظلمات السياسية، تتميز بقدرة جيدة على التقاط فرص "فراغات السلطة"**

*** ومع ذلك تشكل "داعش" معطى جديداً داخل المدار الجهادي..**

- "داعش" هي النسخة الخامسة من "جماعة التوحيد والجهاد" التي أسسها الأردني أبو مصعب الزرقاوي في العراق، بُعيْد الغزو الأمريكي في مارس ٢٠٠٣. هذه الجماعة، كما هو معروف، مرت بمراحل متعددة: في أكتوبر ٢٠٠٤، أعلن الزرقاوي "البيعة" لأسامة بن لادن، فأصبح اسمها "تنظيم القاعدة في بلاد

الرافديـن"، وفي ينايـر ٢٠٠٦ جـرى التحالـف مـع عـدد مـن الفصائل الجهاديـة، فتـم تغيـر الاسـم إلى "مجلـس شـورى المجاهديـن"، وبعـد مقتـل الزرقـاوي (يونيـو ٢٠٠٦)، وتـولي المـصري عبـد المنعم البـدوي (أبـو حمـزة المهاجـر) قيـادة التنظيـم، أُعلـن عـن تحالـف جهـادي أكـبر، تحـت اسـم "الدولـة الإسـلامية في العـراق" بقيـادة حامـد الـزاوي (أبـو عمـر البغـدادي). هـذا الأخـير، قتـل في أبريـل ٢٠١٠، فخلفـه المدعـو إبراهيـم البـدري (أبـو بكـر البغـدادي) الـذي أعلـن في أبريـل ٢٠١٣ عـن تأسـيس "داعـش" كاندمـاج بـين "الدولـة الإسـلامية في العـراق" و"جبهـة النـصرة" في سـورية، وهـو القـرار الـذي عارضـه أمـير "النـصرة" أبـو محمـد الجـولاني، وأيـده في ذلـك زعيـم "القاعـدة" أيمـن الظواهـري الـذي أمـر بإلغـاء مـشروع هـذا الاندمـاج، لكـن البغـدادي تجـاوز الاثنـين، واسـتمر في بنـاء شـبكته الجهاديـة الخاصـة في سـورية، وقـد نجـح في ذلـك إلى حـد كبـير، إذ صـارت "داعـش" اليـوم التنظيـم الجهـادي الأكـبر والأهـم، والأكـثر خطـورة في المنطقـة كلهـا.

لـم تظهـر "داعـش" إذن، مـن فـراغ كمـا حـدث مـع "جبهـة النـصرة" وغيرهـا مـن التعبـيرات الجهاديـة العاملـة عـلى الأراضي السـورية، والـتي لـم يكـن لهـا كيـان سـابق عـلى الثـورة، وإنمـا هـي تنظيـم لـه أصـل وطموحـات وتجربـة ممتـدة عـلى مـدى سـنوات، لا بـد مـن أخذهـا في الاعتبـار، خصوصـاً أن توجهاتهـا الفكريـة والحركيـة الجهاديـة لا تشـكل "قطيعـة" مـع ماضيهـا في العـراق الـذي كان قـد انتهـى إلى الفشـل، لأسـباب متعـددة (منهـا هـذا "الغلـو" في التكفـير والعنـف الـذي تشـتهر بـه اليـوم) إلى أن جـاءت الثـورة السـورية لتمنحـه "قبلـة الحيـاة".

*** مـا هـي أسـباب صعـود "داعـش" في زمـن قيـاسي مقارنـة مـع التنظيمـات الجهاديـة الأخـرى؟ ومـا هـو المحـدد الأكـثر تأثـيراً في هـذا الصعـود: المحـدد الـذاتي؛ بمعـنى الأرضيـة العقديـة الـتي ينطلـق منهـا التنظيـم، أم إن للأمـر علاقـة بالمعطيـات الموضوعيـة الخارجيـة مـن قبيـل السياسـات العربيـة (في العـراق وسـورية خصوصـاً)، وثقـل الـدور الأمريـكي، والإيـراني أيضـاً، في مجريات الأزمـة السـورية؟**

بالتأكيـد العامـل العقـدي (الجهـادي)، عـلى أهميتـه، ليـس كافيـاً وحـده لـشرح صعـود "داعـش" عـلى هـذا النحـو الكاسـح الـذي جعلهـا تسـيطر عـلى مناطـق واسـعة في العـراق وسـورية، وتمحـو الحـدود بـين البلديـن لأول مـرة في التاريـخ العـربي الحديـث والمعـاصر. الصـورة بالغـة التعقيـد، ولا يمكـن النظـر إليهـا مـن هـذه الزاويـة فقـط، بـل لا بـد مـن اسـتحضار مجمـوع العوامـل والتفاعـلات الـتي تفـسر هـذا الصعـود بشـكل أكـثر واقعيـة.

من هذا المنظور، علينا أن نميز بين مستويين:

أولاً: العوامـل الـتي تخـص "بيئـة العمليـات"، وهنـا نشـير إلى نقطـة مهمـة، وهـي أن التنظيمـات الجهاديـة، فضـلاً عـن قدرتهـا عـلى اللعـب، بورقـة الطهرانيـة الدينيـة، عـلى التظلمـات السياسـية (الاسـتبداد) والسوسـيو اقتصاديـة (الفقـر والتهميـش) والثقافيـة (أزمـات الهُويـة)، تتمـيز بقـدرة جيـدة عـلى التقـاط فـرص "فراغـات السـلطة" الـتي يخلّفهـا انهيـار الأنظمـة، أو تلـك الـتي تخلقهـا التوتـرات والنزاعـات السياسـية والطائفيـة الحـادة، والتمـدد في مسـاحاتها.

إذا نظرنـا إلى الوضـع في العـراق وسـورية، نجـد أن جميـع متطلبـات ظهـور مقاومـة جهاديـة عـلى طريقـة "داعـش"، واحتضان

أفكارها وتحركاتها موجودة؛ فانهيار مؤسسات الدولة في العراق (بعد الغزو الأمريكي في ٢٠٠٣) وفي سورية (بعد اندلاع الثورة في ٢٠١١)، والفوضى وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي، ناهيك عن الانفلات الأمني ومخاطره، وطائفية خطاب وسياسات السلطة الحاكمة (الشيعة في العراق والعلويين في سورية)، والاضطهاد النفسي للشارع السني، وممارسات القمع الوحشي ضد المتظاهرين السلميين (في الحالة السورية خصوصاً)، فضلاً عن التجاذبات الصراعية (على أرضية مذهبية) بين القوى الإقليمية (إيران والسعودية) التي يشكّل العراق وسورية مسرحين أساسيين لها، واستمرار خطط التدخل الغربي / الأمريكي في المنطقة، كلها عناصر شكلت "بيئة عمليات" مثالية استغلتها "داعش" للزحف وفرض سلطتها.

ثانياً: العوامل التي تخص التنظيم نفسه في تركيبته وقدراته؛ وتتلخص في الجانب الديني المتشدد الذي أشار إليه السؤال، وهو دافع مهم لا يمكن تجاهل تأثيره الميداني / العملياتي (عبر تفعيل مفاهيم "الجهاد" و"الشهادة")، بالإضافة إلى إمكانياته المادية واللوجستية الكبيرة، والخبرات العسكرية العالية لقياداته (منهم ضباط سابقون في الجيش العراقي) التي جعلت التنظيم قوة ضاربة، وهذا واضح من النتائج المتقدمة التي يحققها على الأرض، مع العلم أنه يقاتل على جبهتين في وقت واحد، ثم فعالية آلته الإعلامية التي تدير بكفاءة خاصة معاركه الموازية على الإنترنت: التحريض على "الجهاد"، واستقطاب مزيد من المقاتلين والأنصار والرد على انتقادات / طعون الخصوم والمخالفين.

إن هذه العوامل مجتمعة يؤلف بينها تساند وظيفي دقيق، وبالتالي يصعب الفصل بينها وتحديد المستوى الأكثر ثقلاً وتأثيراً، لأن الأمر يتعلق بظاهرة مركبة يتداخل في تكوينها، بشكل ارتوازي، الديني مع الطائفي مع السياسي مع العسكري، حيث لا يمكن النظر إليها وقراءتها من منظور واحد فقط.

*** ما هي طبيعة الفكر الجهادي الذي تتبناه "داعش"، في ظل تواتر الشواهد عن غلوها الفكري، وتكفيرها للجماعات الجهادية الأخرى، واستحلال دماء المخالفين لها؟**

تتبنى "داعش" الخط الأكثر راديكالية وعنفاً داخل التيار السلفي الجهادي. فهذا التيار، على عكس ما هو شائع، ليس متجانساً تماماً. هناك بعض الاختلافات أو التمايزات التي تخترق بنيته النظرية وتحد من وحدتها، وهي اختلافات / تمايزات فرعية لا علاقة لها بالأصول العامة، تظهر غالباً في حالات الاشتباك المباشر مع الواقع: في سلوك الجهاديين، وهم يحاولون تنزيل سردياتهم الفكرية على الأرض.

إن الجهاديين عموماً، يقفون في خندق واحد، لكن يمكن رصدهم من خلال ثلاثة خطوط أساسية؛ الأول متصلب جداً، في مقالاته وأقرب إلى المنهج التكفيري (الخارجي)، والثاني معتدل إلى حد ما (طبعاً بمعايير الاعتقاد الجهادي)، يحاول أن يراعي تحولات الظروف والتكيف معها في حدود (شرعية) معينة. أما الثالث، فهو أكثر انفتاحاً على مكونات الواقع واحتواء لها، يميل إلى نوع من "الذرائعية" التكتيكية للوصول إلى أهدافه (يمثله بالخصوص أبو مصعب السوري في كتابه "دعوة المقاومة الإسلامية العالمية"). لاحظ أننا نتحدث هنا على مستوى الفروع؛ أي تلك المسائل الاجتهادية التي يمكن، نسبياً، الاختلاف حولها، أما الأصول: التوحيد وأركانه وشروطه (الحاكمية، الكفر بالطاغوت، الولاء والبراء، الجهاد)، فهذه لا خلاف عليها بين الجهاديين جميعاً.

تنتمي "داعش" إلى الخط الأول، وهي تحاول باستمرار أن تنفي عن نفسها غلوها الديني، باتهام مخالفيها بتعمد تشويه صورتها والنيل منها معنوياً من خلال الافتراء عليها، لكن خطابها وممارساتها، يعبران عن نزعة تكفيرية صارخة، دفعت ثلاثة من كبار منظري الفكر السلفي الجهادي: أبو محمد المقدسي وأبو قتادة الفلسطيني وأبو بصير الطرطوسي إلى مهاجمتها بشدة والتحذير منها، باعتبارها "فرقة من خوارج هذا العصر".

> تتبنى "داعش" الخط الأكثر راديكالية وعنفاً داخل التيار السلفي الجهادي، وهذا التيار، على عكس ما هو شائع، ليس متجانساً تماماً

ومع ذلك، علينا أن نعترف بأنها، على الرغم من انكشاف توجهها التكفيري، والانتقادات الواسعة والموثقة التي تلاحقها من كل جهة، ما تزال قادرة على الحفاظ على تماسكها الأيديولوجي والتنظيمي، واستقطاب وتجنيد الأتباع من كل أنحاء العالم، وهذا راجع إلى فعالية منظومتها الدعائية، وإغراء القوة الذي جعلها قِبلة للباحثين عن "دار الخلافة" الموعودة.

*** ما قصة هذه الخلافة التي أعلنتها "داعش" مؤخراً؟**

- قد يكون من اللغو القول إنها خلافة باطلة لا تلزم إلا أصحابها، هي أشبه بإعلان تجاري سطحي لتسويق منتج ما، وهو هنا "تنظيم الدولة الإسلامية". تظن "داعش"، استناداً إلى توسعها الجغرافي، وإلى اندفاعاتها العسكرية، أن لها الغلبة المطلقة على الأرض، فمن حقها، أن تعلن "الخلافة" من أجل مأسسة سلطتها وفرض وجودها بشكل رسمي، والمثير في الأمر أنها لم تعلن "الخلافة" في مناطق نفوذها فقط، بل جاء الإعلان بصيغة "الولاية العامة" أو "الخلافة العظمى" على المسلمين في كل مكان، وطبعاً هذا هراء لا يستقيم لا مع الواقع، ولا مع أدبيات "السياسة الشرعية" في الإسلام السني التي تشترط لحصول "بيعة" من هذا النوع، أن تكون عن رضى وباتفاق أصحاب الأمر من أهل الشورى.

مشكلة "داعش" أنها تقدم نفسها، باعتبارها "جماعة المسلمين" (لاحظ أن هذا هو الاسم الذي أطلقه شكري مصطفى على تنظيمه "التكفير والهجرة" في مصر في سبعينيات القرن الماضي)، في حين أنها مجرد "جماعة من غلاة المسلمين" لا تعبر إلا عن أفكارها.

*** لكن أين يقف تنظيم القاعدة من كل هذا؟**

- يحاول أيمن الظواهري ألا يتورط مع "داعش" بعمق في سجالات إعلامية صاخبة، يغلب عليها الطابع الانفعالي تجنباً لتبعاتها على سمعة "القاعدة"، وعلى الحالة الجهادية بشكل عام، فهي انشقت عنه منذ البداية، واخترقت قواعد

"البيعة" بشكل عملي، ولم تكتف بذلك، بل اندفعت بكل قوتها تحارب التنظيم المرتبط به في سورية (جبهة النصرة) في عروض دموية غير مسبوقة، وفي الوقت نفسه، شنت عليه هجوماً عنيفاً في منابرها على الإنترنت، مقللة من شأنه ومشككة في قدراته القيادية والتزاماته الجهادية، ولأول مرة رأينا من الجهاديين، من يعلن أن الظواهري "يتلاعب بالأحكام الشرعية الواضحة"، و"يسالم الطواغيت والمرتدين"، وأنه "معوج الدين، منحرف المنهج..ضيع إرث أسامة.. وجعل من نفسه وقاعدته أضحوكة"، وهذا تحول كبير في العقل الجهادي: أن يتم كسر صورة / رمزية "القاعدة" بهذا الشكل الصادم على الملأ.

أعلن الظواهري صراحة، أن "داعش" لا تمثل "القاعدة" لا في سورية ولا في غيرها، وأنها في طريق، وهو في طريق

لقد أعلن الظواهري صراحة، أن "داعش" لا تمثل "القاعدة" لا في سورية ولا في غيرها، وأنها في طريق، وهو في طريق، وبدورها أعلنت "داعش" أن "الإمارة" أو "الدولة" لا تبايع تنظيماً، والحقيقة أن الأزمة / القطيعة بين الطرفين ليست حدثاً مفاجئاً. هناك اختلافات أساسية بينهما في الرؤية والاستراتيجيات، وكذلك في بعض الجزئيات الخاصة بالتكفير والعنف، فضلاً عن التنافس الشديد حول "امتياز" تمثيل الأصولية الجهادية العالمية في حربها "المقدسة" ضد "الكفر"، وبالتالي، كان من الطبيعي أن يفترقا في النهاية.

* كيف يمكن مواجهة "داعش" ومثيلاتها من التنظيمات الجهادية؟

- الظاهرة الجهادية عموماً، على المستويين المفهومي والتطبيقي، هي، في جوهرها، تعبير اعتراضي متطرف عن بؤسنا العربي والإسلامي في كل مجالات الحياة: تعبير صراعي حاد عن حقائق أزمتنا الحضارية الدائمة والضاغطة والمحرجة. وطالما أن هذه الأزمة مستمرة بلا أفق أو حل، بل هي ماضية في التطور والتراكم والانتشار، لا يمكن أن نتصور اختفاء "داعش" وغيرها من التعبيرات الجهادية، بنسقها الاعتقادي (التكفيري)، وبحواملها الفكرية / الأيديولوجية (العنفية) من هذه المنطقة؛ قد تتراجع في بعض الفترات، وقد تخفق في تجاربها هنا وهناك، لأسباب موضوعية مختلفة، لكن المؤكد أنها ستظل، بلا تمييز، قادرة على ملء فراغات تاريخنا الراهن، ما دامت دوافعها ومحرضاتها موجودة وفعالة.

إن الجهاديين ليسوا عابري سبيل في زمننا العربي، ولكنهم محصول هذه الأرض التي تعرّض فيها العقل الجمعي: الديني والسياسي والاجتماعي والعلمي، لانتهاكات صارخة على مدار قرون طويلة، وما يزال الحال على ما هو عليه، على الرغم من الجهود التي يقوم بها بعض النخب، بين الحين والآخر، من أجل تحرير العقل العربي ــ الإسلامي من إساره والخروج به من حالة الانكسار والتخلف و"الفوات التاريخي" التي طال أمدها.

العنف الديني الذي يمارسه الجهاديون أينما حلوا هو في الأساس، ظاهرة فكرية (تراثية)، وهذا يعني أن التصدي له يجب أن يبدأ من هنا. إن المقاومة الفكرية هي الأهم والأكثر تأثيراً، لأنها تجرده من مدلولاته الرمزية (اللاهوتية)، وبالتالي تنزع عنه مسوغاته، وتحرمه من الحاضنة الشعبية، وتحوله إلى مجرد فعل إجرامي عادي، يمكن التعامل معه بفصول القانون الجنائي فقط.

قد يكون "دليل مكافحة التمرد" الأمريكي مفيداً، وقواعده فعالة في مواجهة تحركات الجهاديين على الجبهات: في أفغانستان والعراق وسوريا واليمن والصومال، لكنه وحده لا يستطيع القيام بالمهمة.

في العادة، تتألف استراتيجية مواجهة التطرف والعنف الديني من عدة أوراق / دوائر متداخلة. الدائرة الأمنية والعسكرية مهمة بالتأكيد، وكذلك الدائرة السوسيولوجية، لكن الصدارة يجب أن تكون للدائرة الفكرية. مفردات الإسلام التي اختطفها الجهاديون (والإسلاميون عموماً)، وصادروها لحسابهم لا بد من استعادتها، ولا بد من أن تُقرأ على الجميع بمدلولاتها الحقيقية، تُقرأ بلا تأويلات أو انحيازات، بلا مغالطات، كما جاءت في أصولها الطهرانية الأولى، بعيداً عن أقنعة الأيديولوجيا، ورهانات الحكم والسلطة، وحسابات الربح والخسارة، وادعاءات المتلاعبين بالعقول من وعاظ... وإخوان... وسلفيين... و"قاعدة".. ومنشقين عنها.

دراسات حول داعش

مصادر ذخيرة داعش

٨٠٪

أوضحت الدراسة التي أعدها «مركز البحث في النزاعات المسلحة»، أن 80 في المئة من الذخيرة التي يستخدمها «داعش» مصنوع في الصين والاتحاد السوفياتي السابق والولايات المتحدة وروسيا وصربيا وإيران، والتي حصل عليها من المعارك ضد الجيش العراقي والقوات النظامية السورية، وكذلك عن طريق شراء بعضها من السوق السوداء، وفي صفقات مع أعداء التنظيم، واعتمدت الدراسة في تحديد جنسية الذخائر على ١٧٣٠ رصاصة استخدمها «داعش» في محاربة الأكراد، حيث تبين أن ١٩ في المائة منها جاءت من الولايات المتحدة الأمريكية، تشمل رصاص عيار ٥٫٥٦ ملم، يعود تاريخ تصنيعها إلى ما بين ٢٠٠٥ و٢٠٠٧، بالإضافة إلى رشاشات من صنفي «إم١٦» و«إم٤»، وكذلك مجموعة أخرى قادمة من إيران.

ميزانية الحرب على داعش فوق المتوقع



أظهرت دراسة قام بها «مركز تقييم الاستراتيجيات والميزانية» مطلع أكتوبر (تشرين الأول الماضي)، أن ما يفوق مليار دولار أمريكي هو تكلفة الحرب على داعش، ويمكنها أن تصل إلى حدود ١٫٨ مليار دولار أمريكي، في حالة استخدام قوات برية في الحملة العسكرية ضد داعش، على أن يبلغ قوامها نحو ٢٥ ألف جندي، وتقول الدراسة إن تكلفة الغارات الجوية الأمريكية ضد عناصر داعش، سوف تتراوح شهرياً ما بين ٢٠٠ و٣٢٠ مليون دولار، وستصل التكلفة السنوية إلى ٤ مليارات

أسلحة داعش

- ١٧٣٠ رصاصة، ١٩٪ منها جاءت من الولايات المتحدة الأمريكية
- رصاص عيار ٥٫٥٦ ملم
- رشاشات إم ١٦ و إم ٤

نظرة إيجابية تجاه داعش

- نحو ١٪ من السنة في لبنان
- نحو ٥٪ في السعودية
- نحو ٣٪ في مصر



من الدولارات، كما يتوقع أن تستمر العمليات ضد داعش عدة أعوام، كما صرح بذلك المتحدث باسم وزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون".

اختراق فكر داعش للمجتمعات وحشد التعاطف

٢٥٠

حسب ما صرح به رئيس الشرطة البريطانية برنار هوغان-هوي في أكتوبر (تشرين الأول) الماضي، فإن خمسة بريطانيين على الأقل، يتوجهون كل أسبوع إلى العراق أو سورية للانضمام إلى تنظيم داعش؛ أي بمعدل ٢٥٠ ملتحقاً جديداً بالتنظيم في السنة، وأكثر من ٥٠٠ بريطاني سافروا للمشاركة في القتال، منهم من دخلوا، فيما يرغب آخرون بذلك في الأشهر المقبلة، وربما السنوات القادمة، وهو ما سيشكل خطراً على بريطانيا، في حالة ما إذا فكروا بالعودة إلى وطنهم بسبب خبرتهم العسكرية.

أما وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA)، فكشفت أن عدد عناصر التنظيم في العراق وسورية، يتراوح ما بين ٢٠ و٣١ ألف مقاتل، قدم كثير منهم من الخارج، في تقديرات جديدة تزيد عن تقديرات سابقة لمسؤولين أمريكيين، حصروها في ١٠ آلاف مقاتل، فيما تقدر السلطات الأمريكية عدد مواطنيها في داعش بحوالي ١٠٠ على الأقل، ورجح رئيس لجنة الاستخبارات في مجلس النواب الأمريكي النائب الجمهوري مايك روجرز، أن يكون عدد من يحملون الجنسية الأمريكية في صفوف داعش بالمئات. وتقدر الاستخبارات الألمانية وجود نحو ٤٠٠ من رعاياها في العراق وسورية، يحملون السلاح لصالح داعش، وتقدر أستراليا عدد مواطنيها في داعش بنحو ١٥٠ أسترالياً.

وكشف استطلاع رأي، أجراه «معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى»، شاملاً عيّنة من ألف شخص في مصر والسعودية ولبنان، أنّ ١ في المئة فقط من السنة في لبنان لديهم «وجهات نظر إيجابية» عن «داعش»، فيما لم يعلن أي مشارك مسيحي درزي أو شيعي دعمه لـ «داعش»، وأن

تكلفة الحرب

- ٢٥ ألف جندي
- ٢٠٠ - ٣٢٠ مليون دولار شهرياً
- ٤ مليارات سنوياً



المتحققين بداعش من الخارج

- نحو ٥٠٠ بريطانياً
- نحو ٤٠٠ ألمانياً
- نحو ١٠٠ أمريكياً
- نحو ١٥٠ أسترالياً

٥ في المئة من السعوديين؛ أي ما يقارب نصف مليون شخص يدعمون «داعش»، وهو ما وصفه التقرير بأنها «نسبة كافية على الأقل لإيواء بضع خلايا من مثيري الشغب الخطيرين»، فيما يناصر ١،٥ مليون مصري؛ أي ما يقارب ٣ في المئة من السكان «داعش»، وأوردت الدراسة أن الأكثر مفاجأة هو أنه على الرغم من حملات القمع والدعاية المستمرة من الحكومتين المصرية والسعودية ضدّ «الإخوان المسلمين»، لا تزال هناك نسبة ٣٥ في المئة في مصر و٣١ في المئة في السعودية تنظر إلى «الإخوان» بعين الرضا.

التنظيمات الجهادية تتميز بقدرة جيدة على التقاط فرص «فراغات السلطة» التي يخلّفها انهيار الأنظمة

وكشفت دراسة أجراها «مركز الدراسات الاستراتيجية بالجامعة الأردنية» عن انقسام الرأي في الأردن بين دعم شعبي ملحوظ للدولة الإسلامية، وقلق المملكة من تداعيات المستقبل، خاصة وأنه تم رصد حالة تفيد بأنه «ليس الجميع في الأردن يؤيد المشاركة في التحالف الدولي»، وأن «نسبة ٦٢ في المئة من الأردنيين يعدُّون داعش منظمة إرهابية،» بينما تنخفض النسبة إلى النصف في حال «جبهة النصرة التي تعتبرها نسبة ٣١ في المئة منظمة إرهابية». ويقدر المرصد السوري لحقوق الإنسان عدد أفراد داعش بـ٥٠ ألفا، نصفهم تقريباً من غير السوريين.

وأكد وزير الداخلية المغربي محمد حصاد، في ١٥ تموز/يوليو الماضي أن عدد المغاربة الذين يقاتلون تحت راية داعش يفوق الألفين، مشيراً إلى أن أربعة من المغاربة على الأقل يتولون مواقع مهمة في التنظيم، فيما قال الخبير العسكري والاستراتيجي المغربي عبد الرحمن المكاوي، إن من بين أفراد داعش المغاربة، نساء انضممن في الآونة الأخيرة إلى صفوف القتال، بينهن فتيحة المجاطي التي تتزعم «كتيبة جهاديات».

وكشفت أرقام أصدرها «مركز مكافحة التطرف التابع لكلية كينغز جامعة لندن»، أن تونس التي كانت مهد الربيع العربي، تحولت إلى مركز لتفريخ الجهاديين، حيث يوجد في سوريا اليوم أكثر من ٣،٠٠٠ تونسي، يقاتلون متفوقين في هذا على السعوديين (٢،٥٠٠) والأردنيين (٢،١٠٠) واللبنانيين (٩٠٠) وفرنسا (٧٠٠) وليبيا (٥٥٠).

يوجد في سوريا اليوم من المجاهدين

- ٣٠٠٠ من تونس
- ٢٥٠٠ من السعودية
- ٢١٠٠ من الأردن
- ٩٠٠ من لبنان
- ٧٠٠ من فرنسا
- ٥٥٠ من ليبيا

داعش خلاصة الفقر والأمية والبطالة

٤،٧٪

يقرأ الباحث زكريا حمودان، تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠١٤ في الدول العربية والصادر من البنك الدولي، والذي يقول: «إن الدول العربية تقع تحت المتوسط العالمي في عدم المساواة، وشمل التقرير ٢٢ دولة في شمال أفريقيا وغرب آسيا. وأشار التقرير أن ٧،٤ في المئة من السكان في الدول العربية يعيشون على أقل من ١،٢٥ دولار؛ أي ما يعني الفقر المدقع. بناءً على أرقام البنك الدولي في العام ٢٠٠٩، وصلت نسبة الفقر في السودان إلى أعلى نسبة فقر ٤٦،٥ في المئة، ثم اليمن ٤٥،٢ في المئة، ثم قطاع غزة ٣٨ في المئة، ثم لبنان ٢٨ في المئة، ثم العراق ٢٥ في المئة»، ويضيف: «لهذا توقعت منظمة العمل العربية ارتفاع نسبة البطالة في العالم العربي إلى ١٧ في المئة، وقد كشف المدير العام لمنظمة العمل العربية أحمد محمد لقمان، أن نسبة البطالة في العالم العربي، ارتفعت عام ٢٠١٢ بنسبة ٢ في المئة، مشيراً إلى أن النسبة الإجمالية كانت في حدود ١٤ في المئة، في حين تبلغ نسبة البطالة في العالم ٦،٢ في المئة»، بالإضافة كذلك إلى أن «الإحصائيات أظهرت أن نسبة الأمية في الدول العربية تجاوزت ١٩ في المئة. وكان التقرير العالمي لرصد التعليم للجميع في ٢٠١٢، قد أظهر أن عدد سكان الدول العربية بلغ ٣٥٣،٨ مليون نسمة، منهم ٢٥٦،٩٤٦ مليون ملمّون بالقراءة والكتابة، ما يعني أن عدد الأميين في الدول العربية يصل إلى ٩٦،٨٣٦ مليون أمي».



ويخلص الباحث إلى أنه «إذا تم ربط الأمية بالفقر والبطالة، عندها سنكتشف وبكل بساطة، أن كل داعشي هو إنسان جاهل، لا يعي القراءة والكتابة، تم استغلاله من أصحاب نفوذ وأموال، رفعوا عنه الفقر في مرحلة أولية، حتى دخلوا عقله وامتلكوه كُليًا، بعدها قاموا بتوجيهه نحو بِدَعِهِم وتكفيرهم، فتحول من مواطنٍ أُمي فقير إلى ثائر لا يعي من الدين سوى ما جُلِيَ به دماغه. لهذا، تأتي الحرب الأساسية على الدواعش اليوم، من خلال الإصلاح بكل ما تعنيه هذه الكلمة التي من الواضح بأنَّ الكثيرَ من العربِ قادة وزبانيتهم ومن حولهم، لا يعرفون معناها الحقيقي.



نسبة الفقر في الدول العربية

- ٤٦،٥ ٪ في السودان
- ٤٥،٢٪ في اليمن
- ٣٨٪ في غزة
- ٢٨٪ في لبنان
- ٢٥٪ في العراق

بيبليوغرافيا ملف العدد

- داعش والجهاديون الجدد، جاسم محمد، دار الياقوت للطباعة والتوزيع والنشر، عمان، ٢٠١٤
- داعش... خرائط الدم والوهم، محمود الشناوي، دار روعة للنشر، القاهرة، ٢٠١٤
- داعش...الكتاب الأسود، فادي وليد عاكوم، دار أملي للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٤
- الوهابيّة والسلفيّة الجهاديّة: قراءة في التباسات العلاقة، سمير الحمادي، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠١٤
- داعش اعلان «الدولة الإسلامية والصراع على البيعة، جاسم محمد، دار النشر والتوزيع، المكتب العربي للمعارف ـ مصر، ٢٠١٤
- خلافة داعش، هيثم مناع، مركز المزماة للدراسات والبحوث، دبي، الإمارات، ٢٠١٤
- نبتة إبليس، أحمد البياتي مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع، الدقي، مصر، ٢٠٠٤
- أنا داعشية قبل أن توجد داعش، إيمان مصطفى البُغا، عضو هيئة التدريس بجامعة الدمام، ٢٠١٤
- ثياب الخليفة، أبو قتادة الفلسطيني (وثيقة في مواقع الإنترنت) ٢٠١٤
- The Jihadis Return, ISIS and the News Sunni Uprising, Patrick Cockburn, August ٢٨, ٢٠١٤

مسابقة الشباب العربي للبحوث والدراسات الدينية لسنة ٢٠١٥

«الدولة الوطنية وموقع الدين في الاجتماع السياسي العربي»

للمزيد من المعلومات يرجى زيارة موقع المؤسسة

www.mominoun.com

التدين والتمدين



بقلم: محمد برهومة
باحث وكاتب أردني

من ضمن ما يقوم عليه الفكر السلفي الجهادي، أنّه يتوجّه أساساً إلى تغيير نمط حياة الناس وطريقة/ طرائق عيشهم؛ فهو، بالعادة، يفرّغ ما يزعم أنّه احتجاج ضد السلطات الحاكمة، بالاقتصاص من هامش الحريات الاجتماعية، «الضيق» أصلاً، المتاح للناس العاديين في مدنهم وقراهم. هذه إحدى نقاط الضعف الأساسية للفكر الجهادي المتطرف؛ فهو إذ يضمّ أنصاراً هنا وهناك، إنّما يُنجز ذلك تحت مظلة خطاب احتجاجي راديكالي ضد السلطات القائمة غير الديمقراطية، لكنّه لا يقدّم، أبعد من ذلك، أيّة صورة مستقبلية جاذبة على مستوى الترقي الاجتماعي ورفع مستوى العيش وأسلوب الحياة. لعلّ هذا ما يصيب مستقبل هذا الفكر بمقتل، عاجلاً أم آجلاً، من حيث كونه على الضد من حرية الناس وشوقهم لأن يتمكنوا من التحكّم بمصيرهم وشكل حياتهم وشروط واقعهم. لهذه الأسباب الأخيرة، ثار الناس على مرّ التاريخ ضد الظلم والاستبداد والتهميش، والثورة ضد أي حكم ديني يحمل مثل هذه الصفات ليس استثناء بالطبع.

> يتحاشى فكر «القاعدة ـ داعش» على اختلاف ألوانه، الإقامة في المتن الاجتماعي، ويفضّل الهوامش والأطراف

يتحاشى فكر «القاعدة ـ داعش» على اختلاف ألوانه، الإقامة في المتن الاجتماعي، ويفضّل الهوامش والأطراف والخواصر المكانية الرخوة. ومن أسباب ذلك، التي لا يتم التركيز عليها عند رصد هذه المسألة، أنّ الفكر الديني المتطرف، بنزوعه العولميّ عادة، عدوّ للأماكن التي تحمل ذاكرة محلية وسرديات شعبية وروايات فلكلورية وحياة اجتماعية غنية، وتاريخاً طويلاً من التمدن والعادات والتقاليد الراسخة والمتأصلة في أجيال ممتدة. من هنا يفسّر انتعاشه على امتداد الصحراء المترامية في الأنبار، ومن هنا، يمكن تفسير لماذا عجز تنظيم «داعش» عن الاحتفاظ بأية منطقة غرب مدينة حلب، أو إحداث أي اختراق في دمشق. يمكن بسهولة ذكر تفسيرات سياسية وأمنية لذلك، لكنّ التفسير السوسيولوجيّ مهمٌّ أيضاً، وبه نفسّر شعور التنظيم بـ»الغربة» في مناطق شرق سورية؛ إذ على الرغم من وجوده القهري وتحت سطوة السلاح، لم يتمكن «داعش» من بناء جذور حقيقية له على الأرض في المناطق التي يسيطر عليها في محافظات الرقة ودير الزور والحسكة، مقارنة بانتعاشه جغرافياً على الحدود العراقية-السورية.

وقد لفت حازم الأمين النظر قبل سنوات إلى أنّه سبق لعبدالله عزام الملقب بـ»شيخ الأفغان العرب»، والذي اغتيل أواخر العام ١٩٨٩ في مدينة بيشاور الباكستانية، أن أشار إلى ندرة اللبنانيين الذين هاجروا إلى أفغانستان للقتال هناك، وقد أكد عزام هذه «الندرة» أثناء تشييع شاب فلسطيني من مخيم صبرا (لبنان) في مدينة بيشاور. وشرح عزام في حينها أنّ الإغراءات التي يمثلها لبنان للشباب، هي التي تعوق اندفاعهم إلى «الجهاد».

ومن ضمن ما تتأسس عليه خطابات الحركات السلفية الجهادية، أنها المنافح والمدافع عن «الطائفة السُنيّة» في وجه الطوائف الأخرى، خصوصاً حين تتوافر على قدرات عسكرية وخبرات ميدانية وخطاب عقائدي مبسط ومختصر، يبدو معهوداً؛ لتوظيفه القرآن الكريم والسنّة النبوية في تبريراته وفتاواه، والأهمّ أنّ صدام هذا الخطاب العقائدي مع الأنظمة الحاكمة وظهوره بمظهر الموازي لها والقادر على هزيمتها أو النيل منها، يلامس حاجة نفسية لدى شرائح معينة من الجمهور المستهدف الذي يعاني غضباً وتهميشاً وفراغاً ناجماً عن الشعور بانكسار الذات الناشئ عن الصعوبات المعيشية أو عدم القدرة على التوفيق بين «الطوبى» الفكرية التي يحلم بها والواقع المعيش، الأمر الذي يحيل فكرة «الخلاص» مدخلاً أساسياً في استراتيجيات التجنيد والتأطير والاستقطاب من قبل الجماعات الجهادية، التي تقوم دعايتها على أنّها تحمل «خلاصاً» للمهمشين والراغبين بمغادرة «الهامش» الاجتماعي الذي يحتويهم. ويجوز لنا أن نلاحظ هنا أنّ «ديمغرافيا النشاط الجهادي» في الأردن تتركّز في بعض المخيمات الفلسطينية الأشد تهميشاً وفقرًا وعشوائية، مثل مخيم البقعة للاجئين الفلسطينيين على أطراف العاصمة الأردنية عمّان، أو في مدينتي المفرق ومعان جنوبي الأردن، حيث معدلات التنمية في أخفض مستوياتها، أو في مدينة الزرقاء، التي تعدّ المدينة الأكثر عشوائية والأكثر اكتظاظاً بالسكان بعد العاصمة الأردنية، وكذلك هو حال مدينة الرصيفة المحاذية للزرقاء، وهما معاً يشكلان «الخزان البشري» الأكبر لتفريخ السلفيين الجهاديين في الأردن ومعقلهم الرئيس منذ نحو عقدين من الزمن، وهذا لا يقلل من مكانة مدينة معان كخاصرة رخوة جاذبة لمثل هذه الظاهرات، ويكفي أن نشير إلى أنّ ١٧ مواطنًا أردنياً من مدينة معان وحدها (حتى كتابة هذه السطور) قتلوا في الحرب الدائرة في سورية، كما أنّ المسيرة الأولى والوحيدة المؤيدة لـ»داعش» خرجت من مدينة معان أيضاً رافعة شعار «معان فلوجة الأردن».

فالاشتغال على البيئات المحلية وتنميتها، وشحذ تراثها وذاكرتها، وحراسة هويتها وأدبها وفنونها وتنوعها وثرائها وتسامحها وتعايشها، من الطرق المهمة لمواجهة الفكر المتطرف؛ فكل بيئة محلية تتوافر على شخصية مكانية واجتماعية واضحة وراسخة، هي أضعف قبولاً للتشدد والتطرف أو فرض نمط حياة آخر خشن ووافد وغير متنوع عليها. وخسارة الناس ترقّيهم الاجتماعي وذوقهم الحضاري وخفة روحهم ونمط عيشهم الجميل والبسيط والإنساني، هي أكثر ما يحول دون انجذابهم للأفكار المتطرفة. ضمن هذا الفهم، يمكن على القائمين على الإنتاج السينمائي والتلفزيوني في العالم العربي ردم هذه الحلقة الغائبة تقريباً في أعمالهم الفنية والإبداعية، كما أنّ على الدول أن تضع سياساتها الاستراتيجية لمواجهة التطرف ومكافحة مشاريع العنف المحتملة، وليس الاقتصار على الحلول الأمنية فقط.

> إنّ الانفتاح الذي كانت تتميّز به مدن عربية، قبل عقود، إنّما يتحوّل الآن، انغلاقًا واتجاهًا للمحافظة والاستهلاكية والتديّن الاستعراضي

وإذ نقدّر أنّ فكر التكفير والعنف المسلح هو فكر «أقلّي» في المجتمعات العربية، من دون تقليل من خطر هذه القلة على أمن الأفراد والمجتمعات واستقرار الدول وتقدمها، فإنّ هذا لا يعني عدم الاعتراف بأنّ هذا الفكر، إنّما يستمد قراءته للدين وشؤون الناس من نصوص دينية وتراث ديني عقيدي وفقهي قد يؤسس للتشدد إذا ما قُرئ قراءة مغلقة، لا تعترف بحركة الحياة وتطورها وتخلط بين الدين والتدين وبين ما هو اجتماعي في التراث الديني وما هو متعالٍ على الاجتماع في النصوص المقدسة، ويمثّل روح الدين ومبادئه الأبدية.

ولعل من الجدير بالانتباه هنا أنّه لا يكفي القول إنّ التراث الديني الإسلامي هو تراث مديني إلى حد كبير، وإنّ الإسلام الحضاري ارتبط تاريخيًّا بمدنه وحواضره ارتباطاً وثيقًا، للوصول إلى نتيجة تلقائية أشبه بمعادلة دائمة مفادها بأنّ المتوقع من هذا الارتباط هو إيجاد فضاءات منفتحة في الفكر والسلوك، تعزز الروابط المتحضرة بين الناس بعيدًا عن الاعتماد الواسع على روابط الدم والقرابة والنسب والعصبيات والجهويات. وذاك النوع من الفقه المتشدد في التاريخ الإسلامي، والذي ما يزال منتشرًا بين ظهرانينا، والقائم على «الهوية النقية والخام» وعلى سدّ الذرائع، والإفراط في الحماية والمبالغة في «الطهرانية»، والإسراف في مفاهيم «الولاء

والبراء» وتقسيم العالم إلى قسمين مسلم وغير مسلم، والتشدد مع المرأة وعلاقة الرجل بها... إنّما نشأ في الحقيقة في أحضان المدن الإسلامية الكبرى (دمشق، وبغداد...) وترعرع في أجواء مدينية، حيث الأنهار والخضرة والأسواق، كما نما هذا الفقه جنبًا إلى جنب مع بيئات انتشرت فيها الفلسفة والآداب والفنون والمعارف المختلفة. غير أنّ القانون الذي كانت تنتظم المجتمعات الإسلامية وفقاً له، وهو الفقه، كان أحد روافد حركة الناس في هذه المجتمعات وليس المحدد الوحيد لدينامية اجتماعهم، فجذر التحضر كان يتمثل أساساً في مرونة في الانفتاح على الثقافات الأخرى والعلوم المختلفة والشغف بالآداب والفنون والفلسفة، فكانت الحضارة الإسلامية زمن ازدهارها نتاج هذه التوليفة وليست أسيرة السياق الفقهي أو إغراق الحياة بالفتاوى.

وفي دراسته لـ«المجتمع والدولة في المشرق العربي» لاحظ الباحث اللبناني غسان سلامة أنّ نفوذ المراجع الشيعية العراقية لم يكن يتعدى (قبل أنْ تتريّف بغداد في السنين الأخيرة وتنقلب ديمغرافيتها) مدينة النجف في الأيام الاعتيادية، ولم يكن هناك من مؤسسات دينية على الإطلاق بعد خمسين أو مئة كيلومتر من مدينة النجف في منطقة الفرات الأوسط مثلاً. في المقابل، علينا أن نتذكر أنّ نشاط «الإخوان المسلمين» عربيًا في معظمه يُعدّ نشاطاً مدينيًا، بينما كان حظّ الأحزاب القومية واليسارية في العقود السابقة أفضل في الأرياف اللبنانية والسورية والعراقية. وحين حكمتْ هذه الأحزاب «ريّفتْ» السلطة والثقافة السياسية وأعادتْ تعريف العلاقات الاجتماعية وفق أجندتها السياسية الضيقة، ولم تؤسس لعلاقة تقوم على «المواطنة» وسيادة القانون. لكنّ الحركات الإسلامية، في المقابل، بسبب استنادها الكبير على «الشعبويّة» في التعبئة والتجنيد والحشد وتكثير المناصرين، (وكل ذلك في بيئة مدينية)، قد فشلتْ هي أيضاً، في إنتاج ثقافة مدينية تقوم على سيادة القانون والشراكة الوطنية، فكان انفتاحها على المجتمع بجميع أطيافه وخطابها الفكري قاصرًا، ولم تخلُ من انغلاق وتشدد أضعفَ الاحتمالات المدينية أو الوطنية الجامعة في مشروعها.

لا بل إنّ الانفتاح الذي كانت تتميّز به مدن عربية، مثل القاهرة والإسكندرية وبغداد وعمّان وحلب قبل عقود، إنّما يتحوّل الآن ـ مقارنة بالسابق ـ انغلاقًا واتجاهًا للمحافظة والاستهلاكية والتديّن الاستعراضي، المرتكز على الشكليات والإجراءات، مضعفًا بذلك روح التديّن القائم على الذوق في المعاملة واللطف المديني والتأدب المتحضّر والرحمة والمحبة والتضامن، والانفتاح على الناس. وروح هذا التدين المتحضّر الذي يقيم علاقة جدلية بين التدين والمدينة تتراجع لحساب تديّن خشن قصير النظر، هو أقرب إلى روح العصبية الاجتماعية منه إلى روح الإيمان الواعي، الذي دفع النبي الكريم عليه السلام لتسمية «يثرب»، التي تعني التشتيت والشتات، بـ«المدينة»، وهو، كما يذكر الباحث السعودي عبدالله الغذامي، مبتكر ثقافي جديد على حياة العرب، إذ كانت البلدان تسمّى بالقرى والقرية، ومنه كان مسمّى مكة بـ«أم القرى»؛ أي عاصمتها وكبراها.

والمدينة، وفق الكاتب السوري عمر قدور، هي الفضاء الذي يتيح التفكك التدريجي الطبيعي للبنى التقليدية وإنتاج بنى سياسية حديثة، مثل الأحزاب والنقابات وغيرها، والمدينية هي شروع في السياسة، حيث تتناسب الديمقراطية طرداً مع مستوى التمدين.

ضد الإغراق في المصرية...!



بقلم: هاني نسيره
كاتب وباحث مصري

حين أصدر بطرس البستاني موسوعته في بدايات القرن العشرين كان الاحتفال والتقدير في مصر، وعلى الرغم من أن أسماء كجمال الدين الأفغاني وفارس الشدياق وأسرة اليازجي وغيرها كانت بارزة قبل قدومها مصر؛ إلا أن مصر كانت محطة بروزها الأهم كما يقول مترجموها... وكان شاعر العراق الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي يكتب من آن لآخر افتتاحية السياسة الأسبوعية قبل ظهور الإنترنت، وهكذا يمكن الحديث عن المسرح والصحافة والموسيقى والكثير...حين نذكر مصر الرائدة وليست مصر الغارقة في مصريتها!

في عصر الإنترنت والتواصلية، قلما تجد كاتباً مصرياً، وبعضهم يكتب يومياً وفي عدد من الجرائد في آن، يهتم بما صدر في الأردن أو في المغرب أو في مؤسسات تلتقي مع اهتماماته، وتلتقي مع قضاياه، فقليل منهم من تناول مشاكل الأيزيديين أو يهتم بواقع الدول العربية الأخرى، ولكن أسفاً أن بعضهم يكتب كما يكتب بعض الخليجيين الشباب على الطبل...على الرغبة والرهبة... فقط، لم يكن العقاد الذي احتفى بالقصيبي وكتابه «هذه هي الأغلال» هكذا، ولم يكن طه حسين الذي كان يرسل المكاتبات النقدية والنقاشية للمغرب وللخليج، وهو البصير غير المبصر هكذا...لم يكن محمد عبده الإمام الذي كان يمتطي الحمار للوصول للأزهر من منزله في ضاحية الزيتون بالقاهرة هكذا... فقد سافر للبنان وسافر لباريس، وزار تونس سنة ١٩٠٣ وصادق الطاهر بن عاشور ولقبه بسفير الدعوة في الإصلاح الديني! أما الآن، فلا شئ من ذلك.. . من هنا كتبنا حول الإغراق في المصرية التي نرفضها ونراها علامة عطب الخطاب والنخبة الآن باحثين عن علاج! هذا الخطاب والنخبة المتقاطعة وطنياً وإقليمياً، وهي تدعي الريادة آن لها أن تصحو وتستفيق....

> لا تكتمل الذات- فردية كانت أو جماعية- إلا حين ترى نفسها في مرايا الآخر أو الآخرين

ولكن مصر الآن، لا تتجاوز ذاتها وسجالها، لا تنتبه لقضايا الآخرين، ما يشبهها وما يختلف عنها، ما تجاوزها وما

تخلف وراءها، أثناء تفجيرات الضاحية اللبنانية في فبراير الماضي مسحت الصحف المصرية الصادرة، فلم أجد إلا خبراً عن تفجير هز لبنان، ولكن لم أجد قراءة في مسار ليس بعيداً عنا بحال، وكان من المهم الانتباه إليه، وهكذا يمكن الحديث عن اليمن وعن ليبيا وعن تونس وعن العراق... وهلم جرّا.. إيجاباً وسلباً...صرنا مغرقين في مصريتنا!

لا تكتمل الذات- فردية كانت أو جماعية- إلا حين ترى نفسها في مرايا الآخر أو الآخرين...ربما من تكريم الله للإنسان اعتناؤه بهويته وحقها وكرامتها، ولكن من نقص الإنسان أيضاً أن يكتفي بهذه الذات، ولا يتصور نقصها واحتياجاتها للآخر، حين يهرب من مواجهة عيوبه، على الرغم من أن الحقيقة والواقع يظلان كاشفين.

تبدو الذات في خيالها الخاص كمالاً، أو مشروعاً تعوق الأشباح والعلل ومؤامرات الأعداء اكتماله وتحققه...هي الكمال والآخرون نقص، تنتفخ الأنا وتصير نحن فردية، وتزيد تأكيداً جمعياً، ونقول: «نحن المصريين» أو «نحن العرب والمسلمين» أو نحن «ألمانيا» فوق الجميع كما كان هتاف الرايخ وعباد هتلر في العهد النازي!

في هذه الحالة، يكون النقد الذاتي مستبعداً، ويكون النقد مرادفاً فقط للمديح، تكون عزلة نفسية عن اكتشاف الآخرين أو اكتشاف الذات- كما هي- لا كما نتمناها، ويظل نقصه ثابتاً، لأنه في مخياله اكتمال لا يحتاج تغييراً...فتظل هتافات الوطنية، والوطن مأزومة، وتظل هتافات الحرية وحريات الآخرين مقيدة، وتظل هتافات المستقبل، بينما الحاضر يابساً جامداً لا يغادر موضع قدم!

إن تقديس الأنا.. يتحول عند البعض خوفاً عليها، فلا يثني على آخر، ولا يذكر محاسنه، بل يحاول إبعاده وإقصاءه من المشهد، يعجز عن قول «برافو» لزميله حين يجيد عملاً أو يحقق إنجازاً، هذه هي الغيرة بين أصحاب المجال الواحد، تصيب أصحابها بالعجز عن تقدير الآخرين، الاعتراف بفضلهم وتمايزهم، الاستفادة من تجاربهم معالجة لأزمات الذات...

ولكن تطوير الأنا، سواء فردية أو جماعية، تستدعي مواجهتها في مرايا الآخرين، في مرايا تفوقهم وتطورهم، علينا أن نستفيد من تجارب كدبي العربية الشقيقة وتجارب سنغافورة وتجارب ماليزيا، علينا أن نتعلم من الهند التي صارت مثالاً في التقدم والتنمية.. .علينا أن نفكر في شرعية الإنجاز لا شرعية الكلام! على صحافتنا وثقافتنا وإعلامنا أن يفتح عينيه بعيداً على مرايا الآخرين، حتى لا ينتفخ فيموت نقصاً، وهو لا يدري!

من المهم مواجهة الذات... من المهم أن نقرأ مصر في مرآة العالم والإقليم، دون انتفاخ أو مبالغة؛ فالأدوار لا يمكن أن تتجاوز القدرات، والطموح القومي والإقليمي وأساتذية العالم لا يمكن أن يكون بالكلامولوجيا والأغاني الوطنية وبرامج التوك شو والانفعالات المتبادلة....إنها تبدأ من معالجة مشاكلنا من النقد الذاتي ومن القدرة على القول «برافو» لكل آخر ولكل مختلف، بل لكل خصم فمرايا الآخرين وحدها يمكن أن تكون المقياس الصحيح لنا!

الإغراق في المصرية:

لماذا كل هذا الذي كتبت عن انتفاخ الذات؟... لأني أرفض ظاهرة أسميها الإغراق في المصرية...كثير من مثقفينا وصحافيينا وإعلاميينا، حيث لا يهتم من يعرفون بما هو خارج مصر؟ كما أن السائد عدم الاهتمام أو عدم المعرفة أصلاً بما يحدث خارجها...وكأننا نعيش وهماً في العالم وحدنا!

> من المهم أن نقرأ مصر في مرآة العالم والإقليم، دون انتفاخ أو مبالغة

التعليم المنهار والثابت كما هو... مشكلة اللغات الأجنبية والتعليم الإلكتروني والمعلوماتي، حيث يتخرج خريجونا يتكلمون إنجليزية خاصة بنا، ويتعاطون مع الكمبيوتر كلامولوجيا وحكايات في الغالب! على المواقع التواصلية التي تلف حياتنا الآن، دون كثير مما يمكن أن يطور هذه الحياة ويدفع بها!

حين نقرأ العنف الإرهابي الصاعد، لم يقارنه أحد بمعدلات العنف الأكبر في بلد كالعراق الذي يعد ثاني أغلى بلد عربي نفطي في المنطقة، ولكنه البلد الأول في العالم في العمليات الانتحارية، أو يقارنه بالحالة الليبية التي صارت تسيطر عليها الميليشيات التي تبلغ مئات المجموعات المسلحة، وتم اغتيال ٥٠ شخصية أمنية في فبراير الماضي فقط! ويعاني من نزعة الهيمنة الإخوانية على المؤتمر الوطني العام الذي يحتكر كل شيء، ويسيطر على الميزانية ويسعى لتنصيب رئيس وزراء تابع له ومحسوب عليه، على الرغم من مخالفة جلسة تنصيبه للدستور وخارطة الطريق!

لن تتقدم مصر بتآكلها... ولكن بالوعي المنفتح الموضوعي... وعياً مكيناً بالعالم وبذاتها، وليس غرقاً فيها... ضد الإغراق في المصرية من أجل مصر!

إغواء الكتابة...



بقلم: عصام القيسي
باحث وكاتب يمني

حين يبدأ المثقف تجربة الكتابة للآخر، فإن أول ما يستولي على اهتمامه هو الرغبة في امتلاك أسلوب لغوي جذّاب أو متين - حسب ما يراه مثالياً - وكثيراً ما يفتتن الكاتب الصاعد بأسلوب كاتب شهير، يصبح مثله الأعلى في الكتابة. وقد يفتتن بأكثر من أسلوب لأكثر من كاتب، ويقع في حيرة الاختيار والتبني. وقليل من الكتاب من يجعل من هذه التجربة مخاضاً لميلاد أسلوب خاص يدل على صاحبه وحده.

وكان لصاحب هذه السطور تجربة في هذا الباب، تستحق أن تروى: ففي مطلع حياته المعرفية - أواخر عقد الثمانينيات من القرن الماضي - تعرّف الفتى على مؤلفات الأديب اللبناني الكبير مارون عبّود، قبل أن يتعرف على أيّ من كتاب العربية الكبار الآخرين، إذ لم يكن حينها قد تجاوز مرحلة الاطلاع في أدب الأطفال والناشئة بعد. ومع أن كتاب «مناوشات» لم يكن من الكتب ذات الطبيعة الأدبية الخالصة لمارون عبود، إلا أن أسلوبه الأدبي قد ترك في نفس الفتى أثراً قوياً دفعه للبحث عن بقية تراث المؤلف. وظل مارون عبود - عند صاحبنا - سيّد الكتابة، إلى أن عثر بنزار قباني بعد ذلك!

> إن التورط في عالم النقد والفكر لا بد أن يدفع صاحبه إلى عقيدة أسلوبية خاصة

لقد كان اللقاء بنزار قباني حدثاً استثنائياً في حياة صاحبنا، يشبه لقاء نيوتن بالجاذبية، ولقاء داروين بالنشوء والترقي، ولقاء آينشتاين بالنسبية!... فلم يكن أسلوب نزار وحده هو الذي أصابه بدوار الدهشة، بل إن محاسن القدر قد جعلت باكورة هذا اللقاء مع كتاب ذي طبيعة خاصة هنا هو كتاب «الكتابة عمل انقلابي». وظن صاحبنا من لحظتها أن أسلوب نزار الساحر هو نهاية الأساليب الكتابية (قياساً على: نهاية التاريخ ونهاية الأيديولوجيا)، وأنه يُعلى ولا يُعلى عليه، فذهب يتأمل هذا الأسلوب ويقتص أثره ويحاكيه، في نشوة ذات خدر لذيذ، قائلاً في نفسه: لا أظن أن الله قد سهل من جمال الكتابة وسحرها - في الماضي والحاضر والمستقبل - ما سهل لهذا الأديب!.

في فـترات لاحقـة، وجـد صاحبنـا - الشـاب - نفسـه أمـام حشـد واسـع مـن الأسـاليب الكتابيـة الجميلـة والرصينـة، لـدى عدد كبـير مـن كتـاب العربيـة المعاصريـن. وكان لـكل أسـلوب جمالياته الخاصـة: مـن السـهل الممتنـع لطـه حسـين، إلى البسـيط النافـذ لتوفيـق الحكيـم، إلى الموسـيقي الآسر لخالـد محمـد خالـد، إلى الحـار المحكـم لسـيد قطـب، إلى الأنيـق الماكـر لأنيـس منصـور، إلى المفارقـة السـاخرة للصـادق النيهـوم، وفـرج فـودة، إلى المقنـن الدقيـق لنصر حامـد أبـو زيـد ومحمـد عابـد الجابـري،... إلـخ. مـع المـرور عـلى الأسـلوب الغـربي المترجـم المولـع بالمفارقـة والكنايـة والمراوغـة (كزنتزاكـس مثـلاً).

وحـين يقـع كاتـب صاعـد مولـع بالجمـال في هـذا الكرنفـال الجمـالي مـن الأسـاليب الكتابيـة، لا بـد أن يداهمـه شـعور بـالأسى، مثـل ذلـك الـذي يداهم رجـلاً مولعـاً بالنسـاء، حـين يقـال لـه: اخـتر واحـدة فقـط مـن بـين هـذه المجموعـة مـن الحسـناوات!، فيقـول في نفسـه المليئـة بالحـسرة: ليتـني أسـتطيع امتـلاك الجميـع!.

لقـد كان صاحبنـا مطمئنـاً إلى قدرتـه عـلى تقليـد أسـلوب واحـد مـن بـين هـذ الأسـاليب الكتابيـة إلى حـد مـا، لكنـه سيشـعر بألـم الفـراق تجـاه الأسـاليب الكتابيـة الأخـرى الـتي قـد يهملهـا. ولـم يـدر بخلـده - لحظتهـا - أن اختيـار الأسـلوب الكتـابي ليـس بيـد الرغبـة وحدهـا، وإنمـا هـو قـرار تتخـذه مجموعـة مـن الاحتياجـات والاشـتراطات الكتابيـة. وقـد أدرك هـذه الحقيقـة في وقـت لاحـق، عندمـا حـوّل اهتمامـه مـن مجـال الأدب إلى مجـال النقـد والفلسـفة.

إن التـورط في عالـم النقـد والفكـر لا بـد أن يدفـع صاحبـه إلى عقيـدة أسـلوبية خاصـة، تقـوم عـلى اللغـة المقننـة، المرشـدة، الدقيقـة، والـتي تـأتي عـلى حسـاب قـدر كبـير مـن لغـة الاسـتعارة والتصويـر. والتحـول مـن هـذه الأسـاليب الشـعرية إلى الأسـلوب العلمـي – بقـرار عقـلاني خالـص – ليـس عمـلاً سـهلا بالطبـع، فإنـه قـد يحتـاج إلى عمليـة قيصريـة مؤلمـة. لمـا للمجـاز والزخـرف الكلامـي مـن إغـواء عـلى نفـس الكاتـب!.

وأدرك صاحبنـا أن طبيعـة المجـال والموضـوع المطـروق يشـاركان الرغبـة الجماليـة في اختيـار الأسـلوب الكلامـي، كمـا أدرك طبيعـة التنـازل الـذي سـيقدمه لصالـح الكتابـة الجديـدة. ولـم يكـن يؤرقـه بعـد ذلـك مـا إذا كانـت اللغـة الجديـدة مفهومـة بالغـة لمسـتويات عـدة مـن المخاطبـين أم لا؛ فالمهـم – مـن وجهـة نظـره آنـذاك – أن تكـون العبـارة دالـة عـلى الفكـرة دلالـة دقيقـة ومكثفـة. فالدقـة والكثافـة شرطـان في الكتابـة المواكبـة للعقـل الكتـابي الحديـث (نقيـض الشـفاهي)، مهمـا يكـن منسـوب الإبهـام أو الغمـوض فيهـا. وإذا مـا ووجـه باعـتراض مـن قبـل أحدهـم، قـال لـه: هنـاك فـرق بـين الكتابـة الرفيعـة وبرنامـج «مـا يطلبـه المسـتمعون»!

الدقة والكثافة شرطان في الكتابة المواكبة للعقل الكتابي الحديث

وكان لأدبيـات الحداثـة العربيـة تأثـير قـوي في تبـني هـذه العقيـدة لـدى صاحبنـا قبـل أن يكتشـف المفارقـة اللاذعـة في خطابهـا أثنـاء قراءتـه لكتـاب «الثابـت والمتحـول» لمنظـر الحداثـة الأبـرز د. عـلي أحمـد سـعيد (أدونيـس)؛ فقـد فتـح الكتـاب عـين صاحبنـا عـلى المهمة الأساسية لمشروع الحداثـة العـربي، وهي الإسـهام في إحـداث التحـول النهضـوي العـربي المنشـود، عـبر إحـداث نقلـة في آليـات الفكـر والخطـاب مـن الحالـة «الاتباعيـة» إلى الحالـة «الإبداعيـة». وتكمـن المفارقـة – كمـا رآهـا – في أن الأسـاليب الكلاميـة للحداثـة العربيـة، لا تسـاعد كثـيراً في تحقيـق هـذه المهمـة، لمـا يكتنفهـا مـن إبهـام وغمـوض مقصوديـن في كثـير مـن الأحيـان. في حـين أن المخاطـب المسـتهدف بخطـاب الحداثـة مـا زال معظمـه قابعـاً في دوائـر الأميـتين البسـيطة والمركبـة، وهـو في هـذه الحالـة أحـوج مـا يكـون إلى مقدمـات نظريـة تأسيسـية ترتقـي بـه في سـلم الوعـي والمعرفـة، حـتى يتمكـن مـن الاتصـال بسـماء الحداثـة!.

عنـد ذلـك، بـدأت عقيـدة كتابيـة جديـدة تتبلـور لـدى صاحبنـا، تحـاول تلبيـة مطالـب النزعتـين الجماليـة والعلميـة جنبـاً إلى جنـب، في معادلـة تضبطهـا طبيعـة الموضـوع وحاجتـه الأسـلوبية، شرط ألا تـأتي غوايـة مـا على حسـاب الفكـرة والمضمون.

من الذاكرة إلى التاريخ

كدنا لا نصدق أنفسنا، ونحن نحضر افتتاح متحف الفن الحديث والمعاصر بالمغرب. إنه الحدث المنتظر للألفية الجديدة والمعْلمة التي طال انتظارها؛ فلقد ظل مشروع المتحف ينتظر الاستكمال لأكثر من عقد من الزمن.

بقلم: فريد الزاهي
كاتب وناقد فني وجمالي
من المغرب

وبالرغم من أن الموقع وسط المدينة استراتيجي، ويليق بمأثرة مكرسة للفن البصري في المغرب، إلا أن المعمار الهجين الذي تم تبنيه له، يجعلنا أسيري منظور الجنرال ليوطي (عراب الحماية الاستعمارية ومهندسها الأكبر) بشكل مزدوج:

أولاً، لأن عدم التفكير في تخصيص فضاء للفن التشكيلي بالمغرب إلى حد بداية الألفية الجديدة، يقوم على تصور ندين به لهذا الأخير، وامتد إلى يومنا هذا. فقد كان ليوطي، وكان له الحق في ذلك حينها، يرى أن الفن المغربي ينحصر في الحرف التقليدية، فاهتم بها وشجع الحفاظ عليها وأنعشها، بل إنه استدعى في بداية العشرينيات المفكر والمستشرق ماسينيون، ليدرسها ويقوم بتصنيفها. وكان من الداعين إلى إقامة متحف لها، سوف يتجسد في متحف البطحاء بفاس، باعتباره أول متحف للتراث التقليدي المغربي. كان ليوطي ملكياً، لذا حافظ على الملكية المغربية ورعاها، وعلى المدن العتيقة، فرمم

> لا يزال الكثير من المثقفين بالمغرب يغلقون عيونهم عن حقيقة كبرى، تتمثل في أن الفنون البصرية كانت ولا تزال واجهة الثقافة المغربية



أسـوار فـاس في أواسـط العشرينيـات وحافـظ عـلى الصنائـع...

لـم يكـن المغـرب حينهـا، قـد عـرف الممارسـة التشـكيلية بالشكل الـذي سـوف يتـم في الخمسـينيات؛ فقـد انغـرس التعاطي للفـن بشـكل حثيـث، بـدءًا مـن أواخـر الأربعينيـات، مـع التحـاق طلائـع التشـكيليين المغاربـة بالمـدارس المغربيـة والأوروبيـة للفنـون (مريـم مزيـان، أحمـد السرغيـني، حسـن الـكلاوي، الجيـلالي الغربـاوي، محمـد شـبعة، محمـد المليحـي...). كانـت البـلاد تعـرف بالأخـص، معـارض للفنانـين «الكولونياليـين» مـن قبيـل بونطـوا وماجوريـل وغيرهمـا في القاعـات القليلـة الـتي كانـت

على الرغم من أن الفن المغربي تشكل في حركة واضحة المعالم إلا أن فكرة المتحف ظلت أمراً في عداد الخيال

تعرفهـا الـدار البيضـاء والربـاط. ومـع أن الفـن المغـربي تشـكل في حركـة واضحـة المعالـم وطليعيـة عـلى المسـتوى العـربي، منـذ السـتينيات والسـبعينيات، إلا أن فكـرة المتحـف ظلـت أمـراً في عـداد الخيـال. وكانـت الفكـرة «الأقـرب للتجسـيد»، تتمثـل في مسـجد الحسـن الثـاني في الثمانينيـات، فيمـا أن المغـرب كان بحاجـة ماسـة إلى معلمـة مماثلـة في مجـال الثقافـة والفنـون في الفـترة نفسـها.

وثانيـاً: لأن المتحـف في شـكله (الخارجـي عـلى الأقـل) مـن أكـثر المعالـم التباسـاً في وسـط المدينـة؛ فهـو في معمـاره أقـرب إلى معمـار المسـجد، ولا ينقصـه غـير صومعـة، كي يخالـه الزائـر معلمـة دينيـة، وهـو في أحسـن الأحـوال أصلـح في مظهـره الخارجـي، كي يكـون متحفـاً للفنـون التقليديـة أو للفـن الإسـلامي، وإن كنـت أرى أن الأمـر ليـس حتميـا، بالنظـر إلى أن متحـف الفـن الإسـلامي بالدوحـة (عـلى سـبيل المثـال) معلمـة بالغـة الحداثـة معماريـاً، سـواء في هندسـتها الخارجيـة أم في هندسـتنها الداخليـة. وهـا هـو المتحـف يتوافـق، ويـا للمصادفـة، بـل يـا للمفارقـة، مـع مـا يحيـط بـه مـن معالـم أثريـة نيـو مورسـكية، أو مـا يعـرف بأسـلوب ليوطـي أو بالمعمـار المغـربي الجديـد، مـن حيـث هـو مزيـج مـن المعمـار التقليـدي المغـربي الأندلسـي والحديـث، كمـا تجسـد في حـي الحبـوس بالـدار البيضـاء أيضـاً.



ومـع أن المتحـف يتمتـع بهندسـة داخليـة لا بـأس بهـا، إلا أن ثمـة مفارقـة أخـرى تواجهنـا هنـا، فحـين تـم تصـور المتحـف في بدايـات الألفيـة الجديـدة، لـم يكـن الفـن المغـربي قـد عـرف تلـك الفـورة مـن الإنتـاج والتـداول والاحترافيـة الـتي عرفهـا منـذ ٢٠٠٣ بالضبـط. ففـي هـذه الفـترة، صـار الحديـث عـن الفـن المعـاصر الحديـث والشـاب أمـراً مـن بـاب البديهيـات. والحديـث معهـا عـن فـن الفيديـو والمنشـآت installations والمنجـزات الفنيـة performances؛ أي الفنـون البصريـة الجديـدة، أمـراً متـداولاً. كان الفـن المغـربي، ومعـه الثقافـة المغربيـة عمومـاً، يمر مـن عـصر الصـورة إلى عـصر البـصري، مـن غـير أن يكـون الوعـي بذلـك في خلفيـة مـشروع المتحـف. ونحـن نعـني بعـصر البـصري،

المرحلة الجديدة التي صار فيها العالم الافتراضي والتواصلات التكنولوجية في أصل بناء المنظورات الثقافية.

من ثم، فإن المتحف، في شكله الراهن، عاجز عن الاستيعاب الكمي لما تراكم في مجال الفن التشكيلي، وعليه إن هو رغب في خلق عيانية visibilité حقة، أن يغربل أكثر في الأسماء والتجارب، وأن يمنح فضاء حقا للتجارب الجديدة التي تحتاج إلى مساحة أكبر، بدل أن يعرضها في المكان المخصَّص لركن السيارات في القبْو، كما هو الحال في المعرض الافتتاحي الذي تم رسمياً في بداية أكتوبر الحالي.

الذاكرة والهوية البصرية

ومن مفارقة لأخرى، تكون المفارقة الكبرى شبيهة بتلك التي كتبت عنها من عشر سنوات خلت: صرنا نبحث في المغرب عن البترول في بداية الألفية الجديدة، في وقت صار فيه الذهب الأسود الحقيقي هو الماء لا البترول... والحال أن هذا البحث بدأ لأول مرة في أوائل الثلاثينيات؛ أي منذ بداية الاستعمار... أعني أننا بدأنا نفكر فيه في إنشاء متحف للفن المغربي متأخرين بأكثر من نصف قرن. وها نحن ننشئه في وقت، لم يعد فيه المتحف ضرورة هيكلية لحفظ التراث البصري. فالمنزع حالياً، هو أكثر فأكثر للمتاحف الافتراضية،



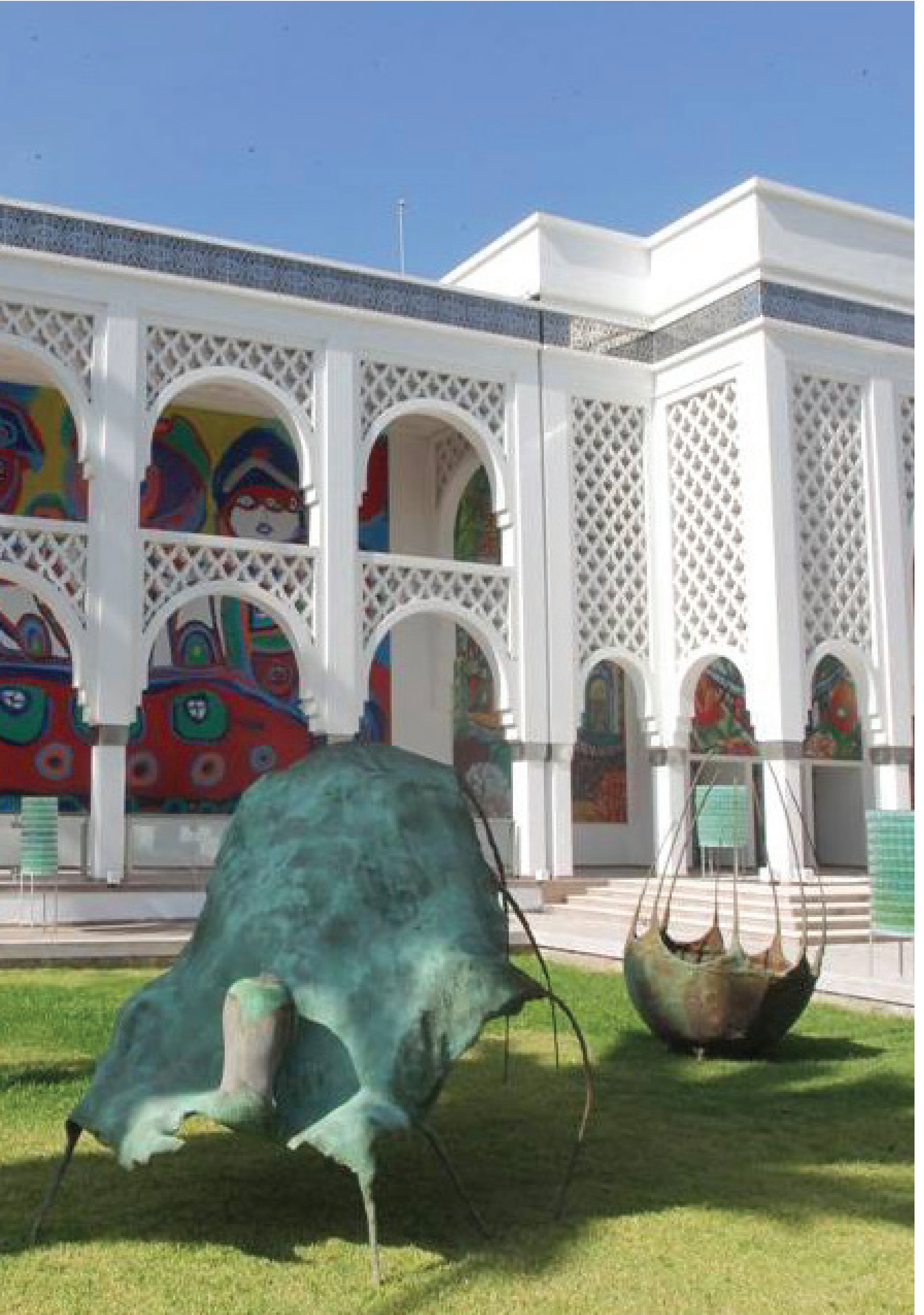
خاصــة وأن الفــن صــار ينحــو باتجــاه هجانــة لــم تعــد فيهــا اللوحــة، ســوى مكــون مــن مكونــات عديــدة، خاصــة وأن تــداول الأعمــال الفنيــة، صــار يتطلــب ميزانيــات هائلــة، وحفــظ الأعمــال الفنيــة في ظــروف جيــدة، خاصــة منهــا الأعمــال المركبــة، بالــغ الكلفــة والتعقــد.

مــن ناحيــة أخــرى، فــإذا كانــت اللوحــات تتطلــب حــيزاً معقــولاً، فــإن الأعمــال المركبــة مــن منشــآت ومنجــزات يعســر حفظهــا، بــل يعســر الحفــاظ عــلى طابعهــا الأصــلي، إمــا لهجانتهــا البالغــة أو للطبيعــة العرضيــة الزائلــة لموادهــا. والغالــب أن هــذه المنشــآت أو المنجــزات تغــدو شــذْرية، حيــث تتحــول في غالــب الأحيــان إلى صــور فوتوغرافيــة تُتــداول، باعتبارهــا خلاصــة العمــل الفــني أو كنايــة جزئيــة لــه. أمــا الفيديــو، فإنــه لا يتطلــب ســوى «مكتبــة أقــراص» (فيديوتيــك) وقاعــة للعــرض، والســند فيــه يمكــن استنســاخه، لأن الإبــداع في المضمــون لا في الســند أو الحامــل.

هـذه الاعتبـارات كلهـا تجعـل مـن المتحـف صيغـة مـن صيغ الحداثـة، مثلـه مثل المطبعـة والجريـدة. وتجعـل وظيفـة المتحـف متصلـة بسـياقها، لا تتجـاوزه إلا لتطـرح إشـكالية المؤسسـات الثقافيـة في سـياقها التاريخـي. إن المتحـف حافـظ للذاكـرة التاريخيـة البصريـة للفـن الحديـث (بمـا أن الفـن الكلاسـيكي لدينـا، مـن زخرفـة وغيرهـا، هـو حـرفي ويدخـل في مجال المعمـار)، وهـو مـن ثـم فضـاء حضـاري، لإنشـاء الذاكـرة التشـكيلية وحفظهـا وعرضهـا، بـل ومتابعتهـا. إنـه يمنـح تاريـخ الفـن تماسـكه وهويتـه، وبعـده الكـوني وعيانيتـه المحليـة والعالميـة.

تاريخ العين من تاريخ الأذن

لا يـزال الكثـير مـن المثقفـين بالمغـرب يغلقـون عيونهـم عن حقيقـة كـبرى، تتمثـل في أن الفنـون البصريـة (مـن فـن تشـكيلي وسـينما – مؤخـراً) كانـت ولا تـزال واجهـة الثقافـة المغربيـة؛ ففـي الوقـت الـذي كان فيـه الأدب المغـربي الحديـث لا يـزال يحْبـو (اللهـم طلائـع الأدب المغـربي المكتـوب بالفرنسـية، وبخاصـة منـه كتابـات إدريـس الشرايـبي)، كان الفـن التشـكيلي المغـربي قـد شـقّ لنفسـه مـدارات العالميـة، وبـدأ يتجـذر في النسـيج الثقـافي المغـربي. ولا أدلّ عـلى ذلـك مـن أن الفنـان العصامـي



أحمـد بـن إدريـس اليعقـوبي كان قـد عـرض بإحـدى القاعـات المرموقـة بنيويـورك سـنة ١٩٥٢، وصـار يُعـد إحـدى العلامـات البـارزة في الثقافـة العالميـة. كمـا أن الجيـلالي الغربـاوي، ومنـذ بداية الخمسينيات، صار ينتمي إلى مدرسـة باريـس الـتي كانـت في تلـك الفـترة إحـدى الحـركات الأكـثر طلائعيـة في التشـكيل العالمـي.

في هـذه الفـترة بالضبـط، لـم يكـن الأدب المغـربي (المكتـوب بالعربيـة والفرنسـية) يتجـاوز الأسـماء الثلاثـة أو الأربعـة (التهامـي الـوزاني، إدريـس الشرايـبي، أحمـد الصفريـوي، وبعـد ذلـك عبـد الكريـم غـلاب)، فيمـا كان الفـن المغـربي يتمـيز بالصعـود والفعاليـة. فقـد خصـص غاسـتون دييـل في سـنة ١٩٦٢-٦٣ تسـع مونوغرافيـات لفنانـين صـاروا طليعـة الفـن التشـكيلي المغـربي. وبمـا أن الفـن لا يمكـن أن ينتج مـن فـراغ، فـإن المغـرب قـد عـرف بنـاء مدرسـتين للفنـون التشـكيلية الأولى بالمنطقـة الخليفيـة سـنة ١٩٤٥، والثانيـة في الـدار البيضـاء سـنة ١٩٥٥. والحـال أن المغـرب لـم يعـرف إنشـاء أول كلية للآداب، إلا سنةً بعـد الاسـتقلال. وقـد صـارت البـلاد تتضمـن العديـد مـن الجامعـات في كامـل ربـوع البـلاد، فيما ظـل حـال التعليـم الفـني المتخصص يعـرف الركـود، مما يضطـر الراغبـين في متابعـة مسـيرهم الـدراسي الفـني إلى اللجـوء إلى المـدارس العليـا في الخـارج، وخاصـة بإسـبانيا وفرنسـا وبلجيـكا.

ليـس الغـرض مـن هـذه المقارنـة، سـوى تفنيـد وهـم يُبتغـى بـه باطـل. ونعـني بـه أن أغلـب الكتابـات عـن الثقافـة المغربيـة تقصي مـن مجالهـا هـذه الواجهـة العتيـدة، المتمثلـة في الثقافـة البصريـة. وكأن التشـكيل والسـينما ينتميـان لعالـم مغايـر، وكأن الثقافـة تنحصر في مجـال الشـعر والقصـة والروايـة والنقـد الأدبي. إن التضخـم الـذي يعرفـه مجـال النقـد الأدبي، عـلى سـبيل التمثيـل، يشـكل إحـدى مهـازل وضعنـا الثقـافي. فعـدد النقـاد وكتـاب المقـالات الصحفيـة الأدبيـة، يفـوق بكثـير عـدد الشـعراء والقصاصـين والروائيـين. فلقـد كان مـن نتائـج تنامـي التعليـم الجامعـي في ثمانينيـات القـرن المـاضي، أن انحسـار التعليـم الفلسـفي (الـذي يسـمح بالاهتمـام بالجماليـات والفنـون) وسـطوة البنيويـة وترسـانتها السردانيـة، قـد أدى إلى فهـم مبسـط لعلاقـة اللغـوي بالبـصري (الـذي كان رولان بـارث في عـزّ بنيويتـه يوليـه أهميـة بالغـة). ولعـل هـذا الإرث الناجـم عـن هـذه الوضعيـة هـو مـا جعـل الانغـلاق اللغـوي يقـصي بشـكل شـبه كامـل أي



العـربي إلا في العقـد الأخـير. أمـا محمـد المليحـي، فـلا تجـد كتابـاً خاصـاً بـه لا بلغـة موليـر ولا بلغـة الضـاد. ومـع أن حركـة النـشر والكتابـة في المجـال التشـكيلي والبـصري، قـد تنامـت في السـنين الأخـيرة، مانحـة إيانـا مونوغرافيـات مهمـة عـن فنانـين، كحسـان بورقيـة، وماحـي بنبـين، وعبـد الرحيـم يامـو مثـلا، فإنـك لا تعـثر عـلى كتـاب خـاص بفنانـين كبـارا، كمـولاي أحمـد الإدريـسي والشـعيبية وفاطمـة حسـن سـنوات طويلـة بعـد وفاتهـم.

هكـذا نجـد أنفسـنا، حـتى لـو لـم نرغـب في ذلـك، في صلـب مسـألة كتابـة تاريخنـا الثقـافي.

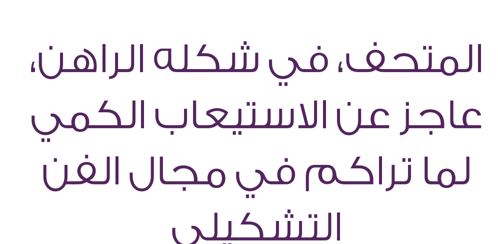
الذاكرة المفقودة، الذاكرة المستعادة

سـواء تعلـق الأمـر بمجـال الثقافـة المكتوبـة، أم بمضمـار الثقافـة البصريـة، فـإن الاهتمـام لا ينصـب لحـد اليـوم إلا عـلى المثقفـين الآحـاد، ولا يهتـم إلا بالمنتجـات المفـردة، فتُغفـل بذلـك المصائـر الثقافيـة الشـمولية. إن التأريـخ الثقـافي، مثلـه مثـل الكتابـة عـن الفنـون وتحليلهـا وتأويلهـا هـو وحـده الكفيـل بإقامـة علاقـة جديـدة بـين اللغـوي والبـصري. فالفـن غـير قابـل لأن يفكـر ذاتـه بذاتـه. إنـه بحاجـة إلى القـدرة التأويليـة المفكـرة للغـة كي يسـتكنه ممكناتـه البصريـة والوجوديـة. مـن ثـم، فـإن التاريـخ المكتـوب للثقافـة المغربيـة (والعربيـة معهـا) وحـده كفيـل بـأن يخـرج المتلقـي مـن سـطوة الحـاضر الأبـدي إلى التعاقبيـة المنتجـة والرمزيـة للتراكـم الثقـافي.

نحـن لا نـزال نتذكـر تلـك الموسـوعات التاريخيـة الـتي كانـت مرجعيـة لنـا، مـن قبيـل تاريـخ الأدب العـربي لحنـا الفاخـوري وغـيره. كان التأريـخ ضرورة ملحـة، كثـيراً مـا توجـه اهتمـام بالصـورة، اللهـم الصـور البلاغيـة والروائيـة والشـعرية؛ أي الصـورة الذهنيـة.

ومـن شـأن هـذا الاختـزال الثقـافي، الـذي صـار الخـروج منـه مأسـاوياً بقـدر الدخـول فيـه، أن يعمـي الأبصـار ولا يفتـح البصائـر. فهـا نحـن نـرى أن عـدد نقـاد الفنـون بالمغـرب مثـلا لا يتجـاوز أصابـع اليـد، بالرغـم مـن الزخـم الـذي تعرفـه الحركـة الفنيـة التشـكيلية منـذ السـتينيات. كمـا أن عـدد المونوغرافيـات والكتـب المخصصـة لكبـار فنانينـا قليلـة، بـل نـادرة. ففريـد بلكاهيـة مثـلا لـم يحـظ بكتـب تـؤرخ لفنـه الطلائعـي في العالـم

مجمل المعارف، وهو وإن كان سردياً وصفياً، إلا أنه كان يمكّن المبتدئ المتعلم من امتلاك مداخل نسقية، تؤسس لمعرفة ممكنة بالمجالات الثقافية. لكن ما الذي يجعل الثقافة العربية اليوم أشبه بالأرخبيلات، لا يمكن التعرف على ما يترابط فيها ولا ما يتفارق ويختلف؟ لقد غدا المثقف العربي اليوم، في أي مجال من المجالات، غير قادر على التفاعل مع المجالات المحيطة، في وقت وزمن ينذر نفسه أكثر فأكثر للتداخلات المعرفية، والتفاعل بين المباحث والتخصصات. ولعل هذه الوضعية هي ما يجعل من التواصلات التي كانت كائنة وممكنة بين الإبداعات (السينما مثلا والأدب والشعر والسياسة)، حتى الستينيات والسبعينيات، وكانت تمكّن من صياغة تصور معين للممارسة الثقافية في عمومها، تضعف بل تغيب لصالح منغلقات ودوائر، يصعب معها صياغة تصور معين للحياة الثقافية في بلد عربي ما.



هكذا يبدو لنا، أن مبدأ الوحدة الذي كان يتحكم في مصائر الثقافة العربية الحديثة، والذي كان يسير بهذه الثقافة نحو منحرفات ومنعرجات ذات طابع إيديولوجي، قد تبخّر ومعه اندلقت المرجعية التي تتحكم مبدئياً في التواصل بين مكونات هذه الثقافة؛ بمعنى أن القارئ، كما المثقف، صار يعيش في حاضر أبدي متجدّد، غير قادر على ابتداع رؤية شمولية قادرة على قراءة التشذر والتعرج والتجدد اللامنقطع الذي يطال مختلف المجالات. وهكذا صرنا تائهين في منعرجات ذاتنا، غير قادرين على رؤية أنفسنا في مرآة تجمع أشلاءنا.

ما الذي سنقدمه للأجيال اللاحقة؟ أية ثقافة وبأي تصور، وانطلاقا من أية رؤية وأي مكونات، سنتحدث إلى أنفسنا وإلى طلبتنا وتلاميذنا؟ هذه الأسئلة التي قد تبدو عاطفية في الظاهر عنّت لي، وأنا أتلقى دعوة للمساهمة في كتاب عن الثقافة المغربية منذ التسعينيات. ومن غرائب الأمور، (بل من طبائعها) أن الآخر هو من صار يهتم بالتأريخ لثقافتنا. فالدعوة نابعة من مركز علمي أجنبي تابع للمركز الوطني العلمي بفرنسا. والمسعى والمنظور يدخلان في إنتاج معرفة تركيبية بالتاريخ الثقافي المعاصر للبلاد من منظور شمولي، يتوخى الإحاطة بمختلف المعطيات الثقافية، الأدبية منها والمشهدية والبصرية، بل والسياسية أيضاً.

وأنا أتابع محادثة نفسي، بدأت أعزو اهتمامي هذا بالتاريخ الثقافي للبلاد، أنا الذي ليس ذا تكوين تاريخي، بل فلسفي أساساً، إلى التقدم في السن، بيد أن التراكم الذي تحقق في الذاكرة الشخصية، وفي ذاكرة الثقافة المغربية والعربية من الكبر والبيان، حيث إن الأمر يتعلق فعلاً بتوافق حتمي بين رغبتي التاريخية والضرورة التأريخية الخارجية.

ولنعدْ لمتحف الفنون المعاصرة... إن المتحف، باعتباره يوفر بشكل ما الإمكان العياني لبناء الذاكرة التاريخية للفنون التشكيلية التاريخي بالمغرب، ذاكرة تراكمية وانتقائية، تحافظ وتكشف وتخزن، وتمارس التقويم المستمر. وبهذا المعنى، وعلى الرغم من المفارقة التي تحدثنا عنها في البداية، والراجعة أساساً إلى تخلفنا التاريخي، فإن هذه البناية هي رحم جديد للثقافة التشكيلية، تبلورها باستمرار بالعلاقة مع مجموع الوسطاء من أروقة ومجموعات فنية ونقاد ومؤرخين للفن. وإذا كانت اللغة تشكل ماضينا التليد ومنتجة لاهوتنا وميتافيزيقانا، فإن الصورة ستغدو تدريجياً حاملة لاهوتنا الجديد وميتافيزيقانا المرتقبة... إنها تنتج وتعيد إنتاج أساطيرنا الجديدة، على مرأى منا وفي غيبة من وعينا... ومن ثم تأتي ضرورة يقظتنا المزدوجة: للصورة وللغة التي يمكنها أن تكتب تاريخها.


صدر حديثا
مراد زوين
الإسلام والحداثة
مقاربات في الدين والسياسة
مؤمنون بلا حدود
المركز الثقافي العربي
للمزيد من المعلومات عن إصدارات المؤسسة يرجى زيارة الموقع الإلكتروني
www.mominoun.com





الحداثة وما بعد الحداثة: مقاربات فلسفية

تعددت الآراء في العلاقة الجدلية بين الحداثة، وما بعد الحداثة. ويعود ذلك إلى عدة أسباب منها: غموض النسبة الزمنية لنشوء ما بعد الحداثة، بوصفه مفهوماً يقوم على أنقاض الحداثة، فضلاً عن كونه مفهوماً يقوم على أنقاض الحداثة، فضلاً عن كونه مفهوماً نشأ وترعرع في رحمها.



بقلم: د. إحسان الشيخ حاجم التميمي

ناقد وشاعر عراقي

وقد وجدنا أن الحديث عن ماهية تلك العلاقة بين الحداثة وما بعدها هو المنهج المقارب، الذي لا شك أنه سيسهم في فهم (ما بعد الحداثة)، بوصفه مفهوماً ما زال يكتنفه الغموض والتناقض، حتى صار يتحدى التعريف أيضاً كحال مفهوم سابقه (الحداثة).

ومن هنا، سنستند إلى مفهوم النفي أو السلبية الذي طرحه هيجل في فلسفته الجدلية، والتي مفادها أن «الكل يتقدم في الأشياء وفي الروح عن طريق المتناقضات التي تنحل كل مرة في صورة تركيب تنبثق منه تناقضات جديدة، وهذه الحركة الجلية هي مصدر النمو والتطور الذي ينتقل به الموجود من حالة ما، فقيرة ومجردة إلى حالة أكثر غنى وأوفر عينية. ولا يعني هيجل بالجدلي، سوى أنه النمط الذي يتم على شاكلته التطور خلال الصراع الباطن، أو آلية النمو وسط النزاع الداخلي. ويبقى الجدل الهيجلي تصوراً عن النزاع الداخلي»[1] الذي يشير به هيجل إلى التناقض الذي يحكم الحركة الحقيقية للعالم.

وتتأسس فكرة هيجل على أن الفكرة تحمل في حناياها النقيض، مع وجود النقيض في داخل هذا النقيض، وهذا التسلسل في الأدوار، ينتهي بوصوله إلى المطلق. وعند هيجل لا يكون النفي كلياً مطلقاً كما كان في الفلسفات السابقة لهيجل.

١- فلسفة هيجل: ٨٣

وإنما يكون النفي جزئياً. ومن هنا، يكون الاتصال والانفصال سمة من سمات هذا النفي؛ فالنقيض المولود داخل الفكرة لايجتثها من جذورها، وإنما ينفيها على نحو جزئي، ليقيم صرحه على هذا الجزء المنفي الذي سيستمر مع بقايا الفكرة الأصلية[٢].

ونظن أن هذا ما ينطبق على العلاقة الجدلية بين الحداثة وما بعد الحداثة، إذ تتأسس ما بعد الحداثة (جزئياً) على أنقاض الحداثة، وتقوم على أرضية هذا النفي الجزئي متزامنة مع سيرورة الحداثة. ويؤمن بتلك الفكرة – ولو على نحو ضمني – عدد غير قليل من المفكرين والفلاسفة المعاصرين المهتمين بفكر الحداثة ومابعدها كما هي الحال عند إيهاب حسن[٣]. ويتبعه كل من يورغن هابرماس، وفرانسوليوتار؛ فكلاهما يؤمن باستحالة فصل الحداثة عما بعد الحداثة([٤])، وإن قال بعضهم بأن ما بعد الحداثة ردّ فعل كلي على الحداثة، كما هي الحال عند ديفيد هارفي، وجاك ديريدا، وميشيل فوكو، وألان تورين وجياني فانتيمو[٥].

ولابد من الإشارة إلى أن مبدأ الخلط يعود إلى أن مواقف بعض النقاد والمفكرين متناقضة من جهة المبدأ من موقعية ما بعد الحداثة من الحداثة. مع أنهم يؤمنون ولو ضمنياً بأن الحداثة لم تنته، ولم يأفل نجمها تماماً، فما زالت مابعد الحداثة تحمل في حناياها مزيداً من الحداثة، كما سنلحظ ذلك في مباحث الرواية الجديدة التي أبرز ما يميزها هو صعوبة الفرز بين معطيات الحداثة ومابعد الحداثة في متونها.

وكان لابد لنا من عرض لأهم عيوب الحداثة، بوصفها الجزء النسبي الذي قامت على أنقاضه ما بعد الحداثة، فعلى الرغم من أن الحداثة – بوصفها ظاهرة شمولية- انمازت بسمة الإبهار والسحر، باستنادها إلى سلطة العقل، وسلطة المنهج التي عززتها البنيوية، في حقولها المعرفية المختلفة؛ لكنها. كما يصفها هنري لوفيفر بأنها «لا تواصل مسيرتها بدون أزمات. إن التناقضات تعبث فيها من كل جانب، وتعمل عملها الذي لو تحقق... سيحول الحياة، بل أكثر من ذلك أن الأزمات تتعدد في قلب هذه الحداثة، وتتقارب من بعضها البعض الآخر»[٦] فضلا عن كونها تعكس جملة من الأوهام والالتباسات والتناقضات، وتوقع في شرك الإبهام والغموض[٧]، ومن ضمن تلك الأوهام أنها لم تخرج من الخطاب الميتافيزيقي واللاهوتي الذي اعتقدت نفسها أنها ثورة عليه، وإنها لاغية لأنطولوجيته وإبستمولوجيته في آن واحد؛ فهي استبدلت اسم الإله، أو الوجود المطلق باسم الإنسان[٨]، حتى زعم مفكرو ما بعد الحداثة – كما فعل ديريدا مثلاً- أن الحداثة نفسها وقعت في الميتافيزيقا أيضاً، مستنداً في فكرته إلى تفنيداته المعمقة لفكر مؤسس المنهج البنيوي دي سوسير، والأنثروبولوجي ليفي شتراوس وجان جاك روسو وغيرهم، مما حداه على الزعم أن الحداثة قد بليت أدواتها وعلاها الصدأ[٩]. ولما كانت المعرفة الدينية من منظور وضعي تحتاج إلى إيمان ميتافيزيقي (غيبي) غير ممكن البرهنة عليه دومًا؛ فإن المعرفة الغربية الوضعية المادية ليست أقل ميتافيزيقيةً من المعرفة الدينية، فهي تنتهي في المحصلة إلى الجزم بمرجعية المادة وحدها، في الوقت الذي تشكل هذه النتيجة أحد الاحتمالات الممكنة فحسب[١٠].

تتأسس ما بعد الحداثة (جزئياً) على أنقاض الحداثة، وتقوم على أرضية هذا النفي الجزئي متزامنة مع سيرورة الحداثة

ويرى الناقد شكري عياد أن التناقض الأساسي في البنيوية أو (الحداثة) هو التناقض الأساسي في الحضارة نفسها، إذ نجد سعياً مستمراً لتحويل كل عمل من أعمال الإنسان إلى نظام آلي يقوم به الكمبيوتر، في مقابل ذلك انهارت كل الضوابط التي تضبط سلوك الإنسان نفسه. كما حاولت الحداثة المتمثلة بالبنيوية – بحسب رأيه – أن تقنن الأدب بوصفه نظاماً عقلياً مجرداً، ولكنّها اصطدمت بالأدب، بوصفه نتاجاً يعبر عن الحالة النفسية للإنسان المعاصر وهمومه[١١]، وفي محاكمته للبنيوية، طرح شكري عياد جملة من التناقضات التي تعتري المنهج البنيوي، كما هي الحال في القول بوجود البنية الأدبية العامة التي هي جوهر الظاهرة الأدبية، ومن جهة أخرى تتضمن البنيوية القول بأنّ لكل عمل قانونه[١٢]،

٢- للاستزادة، ينظر: دراسات هيجلية: ٩ فما بعدها، وهيجليات: ولترستيس: ١٣٢ فما بعدها، ونقد العقل الغربي: ٦. إذ يرى مطاع صفدي أن اكتشاف هيجل لقدرة العقل على إنتاج السلب؛ قد شكل أول شرح حقيقي في واحدية الواحد وتماسكه المطلق.
٣- نحو مفهوم ما بعد الحداثة: ١٥ فما بعدها. (دوريات)
٤- ينظر: سياسة ما بعد الحداثة: ١٠٢
٥- ينظر: حالة ما بعد الحداثة (بحث في أصول التغيير الثقافي): ١٤٦ فما بعدها. والمعنى الأدبي (من الظاهراتية إلى التفكيكية: ١٦٢ ونهاية الحداثة: ٥
٦- ما الحداثة: ٢٧
٧- ينظر: ما بعد السرد (بحث في تقانات الحكاية الجديدة): ٨٠ (دوريات)
٨- ينظر: نقد العقل الغربي: ٢٣٦
٩- ينظر: في الحداثة وما بعد الحداثة؛ دراسات وتعريفات: ٧
١٠- ينظر: أزمة المعرفة في سياق الحداثة:عبدالرحمن الحاج (web)
١١- موقف من البنيوية: ١٩٨. (دوريات).
١٢- ينظر: م. ن: ١٩٨، ١٩٩

وعلى الرغم من أن البنيوية أنزلت العقل من نماذجه المعرفية التقليدية والمحدودة، إلى ما يحدّ من أدوات الفهم وأنساق المعرفة، فثمة أنموذج أعلى وأشد خفاءً يوجه عمق الثورة البنيوية المعرفية، وهو قياس الفكر الغريب (الآخر)على وفق معطيات وتحديدات الفكر الأليف (الذات) مما يعزز أسس المركزية العرقية الغربية؛ فالإنسان الأبيض لم يعد سيداً، لكنّ وسائله لبلوغ المعرفة، ستظل واحدة في نسقها التقليدي الذي يؤمن بوجوب تعميم رسالة الإنسان الأبيض وعقله على الشعوب الأخرى[١٣].

ولعل أبرز التناقضات التي يرصدها ألان تورين تتمثل بأن «فكرة الحداثة في شكلها الأكثر صلابة والأشد تواضعاً، عندما تحددت بتدمير النظم القديمة وبانتصار العقلانية، فقدت قوتها في التحرر وفي الإبداع. ولا تستطيع الصمود أمام القوى المتعارضة، مثل الدعوة الكريمة لحقوق الإنسان، وصعود الاختلافية والعنصرية»[١٤]. ويقر ألان تورين بحدة المفهوم التقليدي للحداثة، بل بعنفه، فهو يصفه بكونه نداء للتحرر مثل نداءات الثوار، ومثل كل رفض للتواطؤ مع الأشكال التقليدية للتنظيم الاجتماعي والاعتقادات الوسطى وبإيجاد الثقة التي كانت لدى القدماء في العقل، وإعطاء الأهمية المركزية للعمل وتنظيم الإنتاج وحرية التبادل وعلو القوانين على الأشخاص. وعلى الرغم من ذلك، فهو يرى حدودها من جانبه الآخر (االسلبي) الذي يعزز دورها السلطوي المهيمن، فهي تؤسس سيطرة النخبة المرشدة والتحديثية على بقية العالم بوساطة تنظيم التجارة والمصانع وبالاستعمار. إن انتصار الحداثة يعني إلغاء المبادئ الخالدة والقضاء على كل جوهر. النزعة الحداثية معادية للنزعة الإنسانية، إنها تعرف جيداً كل وحي، وكل مبدأ أخلاقي يخلق فراغاً يتم ملؤه بفكرة المجتمع أي بفكرة النفعية الاجتماعية. فالإنسان ليس إلا مواطنا، والبِّر يصبح تضامناً والضمير احتراماً للقانون، ويحل الإداريون ورجال القانون محل الأنبياء[١٥].

أما النقد العربي المعاصر (بشقيه الفلسفي والأدبي) فقد تعرض إلى قضية التطرف في التعامل مع مفهوم الحداثة، كما هي الحال عند محمد عابد الجابري الذي انتقد موقف الحداثيين من التراث، إذ وصفوا الاهتمام بالتراث بظاهرة مرضية أو (عصاب جماعي) أصاب المثقفين العرب بعد نكسة ١٩٦٧، والحداثيون يتخيلون أن التراث العربي الإسلامي هو ككل تراث، مجرد بضاعة تنتمي إلى الماضي، ويجب أن تبقى في الماضي، ويرى الجابري أن هذا الموقف ينم عن عدم تقدير كافٍ للإشكالية المطروحة في الثقافة العربية منذ عصر التدوين إلى اليوم، مفادها أن الحركة داخلها لا تتجسد في إنتاج الجديد، بل في إعادة إنتاج القديم[١٦].

وقد تعرض الدكتور عبد العزيز حموده في مقاربته النقدية لمفهوم الحداثة، الذي يعدّه غائماً بسبب منهجية الإبهار، ولاسيما في المشهد النقدي العربي متمثلاً بفارس من فرسان البنيوية، وهو الدكتور جابر عصفور الذي يتعمد الغموض - كما يرى عبد العزيز حموده - والمراوغة باستعمال الميتا لغة، وهما لازمتان من لوازم لغة الحداثيين العرب وغير العرب، والتي تتطلب الاستعانة الدائمة بمعاجم حديثة في الدراسات النفسية واللغوية والنقدية لتحديد دلالات المفردات الباهرة من مثل «الوعي» و«الإدراك» و«الأنا الفاعلة» و«القطيعة المعرفية»[١٧]. ويعرض حموده تعريف جابر عصفور الذي وصف الحداثة بأنها (حالة وعي تنبثق في اللحظة التي تتمرد فيها الأنا الفاعلة للوعي على طرائقها المضادة في الإدراك)؛ إذ يرى حمودة أن تعريف الحداثة عند جابر عصفور يحمل كثيرا من التعسف والتمحل، حيث يصف جابر عصفور، الحداثة في مكان آخر بأنها «الإبداع في تحققه على المستوى الثقافي العام»، ويتساءل حمودة عن فائدة هذه الضجة والجلبة التي ذرفها الحداثيون العرب حول مصطلح الحداثة. وعلى الرغم من اللغة المغلفة بلغة علم النفس التي حددوا فيها مصطلح الحداثة، لكنهم لم يضيفوا شيئا[١٨]. ويعزز عبد العزيزة حمودة موقفه مقتديا بالناقد الغربي المتمرد على القيم البنيوية والتفكيكية من خلال اختراق كينونتها بلغة منطقية يسيرة، تختزل المفاهيم دون الاستناد إلى اللغة السفسطائية، وهو الناقد جوناثان كوللر المنبوذ من لدن زملائه البنيويين، ومن هنا راح يحاكم مقولات الحداثيين العرب بقوله «إن حداثة هؤلاء الشعراء الذين يكتب عنهم» حالة وعي متغير، يبدأ في الشك فيما هو قائم، ويعيد التساؤل فيما هو مسلم به، ويتجاوز ذلك إلى صياغة إبداعية جذرية، لتغير حادث في علاقات المجتمع «قول لا جديد فيه. ولكنه ترديد جديد

إن انتصار الحداثة يعني إلغاء المبادئ الخالدة والقضاء على كل جوهر

١٣- ينظر: نقد العقل الغربي: ٥٠
١٤- نقد الحداثة: ٩٣
١٥- ينظر: نقد الحداثة: ٥٤

١٦- ينظر: التراث والحداثة، دراسات ومناقشات: ١٥
١٧- ينظر: المرايا المحدبة: من البنيوية إلى التفكيك: ٢٠
١٨- ينظر: المرايا المحدبة: ٢٠

لمفهوم قديم قدم الإبداع ذاته، إلى درجة أننا في ظل هذا التعريف للحداثة، نستطيع القول إن كتاب الأدب المدون على مدى خمسة وعشرين قرناً حداثيون، جميعهم وبلا استثناء.. فالشاعر المحدث في رأي جابر عصفور، هو الذي يبدع في الحاضر مقابل الشاعر الذي أبدع في الماضي...». هل في كل ما قيل هنا جديد؟.... إن أبسط المبادئ النقدية التي نعلمها لأبنائنا، أن الإبداع في كل صوره ومدارسه وتقسيماته نقد الواقع، أخذنا ذلك من شيخ النقاد جميعاً، وهو أرسطو حينما عرف الأدب بأنه محاكاة لا لما هو كائن أو موجود، بل لما يحتمل أن يكون، أو ما يجب أن يكون. حتى اليوتوبيا التي صور فيها توماس مور مدينته الفاضلة، تعد نقداً للواقع واستشرافاً للمستقبل، فهي تعلق بصورة غير مباشرة على واقع مرفوض...»[١٩]

نفقه مما تقدم، أن بعض النقاد والمفكرين، ومنهم عبد العزيز حمودة، يرون أنه ليس هناك مشروع حداثة عربية أصلاً، بل هي مرايا محدبة لما أنتجته المنظومة الفكرية الغربية، وهو إتباع أكثر من كونه إبداعاً[٢٠].

تصف ما بعد الحداثة - على نحو عام – نطاقاً واسعاً من التغيرات التي شهدها الفكر الإنساني في العقود الأولى من القرن العشرين؛ فهي تعود إلى تحولين أساسيين في الغرب؛ وهما نهاية الهيمنة الأوربية على العالم، وانفجار ثورة الاتصالات التي أدت إلى انتشار الثقافات المحلية والفرعية والهامش. وعلى الرغم من صعوبة تحديد هذه الحركة، لكنها معنية بنقد الحقائق والهويات والسرديات الكبرى والتشكيك بها[٢١]. وإذا كانت كل الطرق - في مابعد الحداثة – تؤدي إلى الفلسفة كما قيل، فقد تربع على كرسي التنظير الفلسفي لما بعد الحداثة الفيلسوف الفرنسي فرانسو ليوتار، إذ يعد الأول في الميدان التنظيري للظاهرة، ولاسيما في كتابه الوضع ما بعد الحداثي، إذ يستعمل فيه كلمة (مابعد الحداثة) للكشف عن وضع المعرفة في المجتمعات المتطورة، ويشير إلى أن وضع المعرفة يتغير، بينما تدخل المجتمعات في ما يعرف بعصر ما بعد الصناعة والثقافة، أو عصر ما بعد الحداثة، ويؤكد ليوتار على أن عصر ما بعد الحداثة هو عصر التشكيك بالسرديات الكبرى، وتقويضها الناتج عن التقدم في علوم التكنولوجيا والصناعة[٢٢]. تنضبط ما بعد الحداثة إذن داخل خريطة مفاهيمية تقوم أساساً على النفي والتدمير والتجاوز والافتتان «بأخلاقيات الموت» والتحرر ودرامية النهاية[٢٣].

ترى ما بعد الحداثة أن اللغة هي أحد أهم العوائق نحو معرفة الحقيقة

ولاشك أن الرعيل الأول من منظري فكر ما بعد الحداثة – ومنهم ليوتار- استندوا على نحو مباشر أو غير مباشر إلى فكر نيتشه الفلسفي، وسبق أن أشرنا إلى أن طروحات «نيتشه» الفلسفية كانت إحدى المنابع الرئيسة في القرن التاسع عشر التي استقى منها فكر ما بعد الحداثة، بدءاً من النزعة النسبية الأخلاقية والمعرفية لعالم ما بعد الحداثة ونزعة «الشك» التي استند إليها في تمييز الصدق من الكذب، والحقيقة من الزيف، وانتهاء بمبدأ العدمية الذي أرساه نيتشه لتقويض فكر الحداثة.

إن بعض النقاد والمفكرين، ومنهم عبد العزيز حمودة، يرون أنه ليس هناك مشروع حداثة عربية أصلاً، بل هي مرايا محدبة لما أنتجته المنظومة الفكرية الغربية

ولعل إيهاب حسن من ضمن المتأثرين بفكر نيتشه العدمي، فمنذ عام ١٩٦١، تاريخ صدور كتابه الأول «البراءة الراديكالية: دراسات في الرواية الأمريكية المعاصرة»، وإيهاب حسن يجري سلسلة تنويعات على مبدأ نقدي متماثل يرى أن السمة المركزية في الأدب الحديث (أو «ما بعد الحديث» في الواقع) هي العدمية الراديكالية في مسائل الفنّ والشكل واللغة. ولا سيما في (أدب الصمت)، الذي يدور حول نفسه وينقلب عليها، لكي يعلن

١٩- المرايا المحدبة: ١٨
٢٠- ينظر: م. ن: التراث والحداثة: ١٦، وغيرها.
٢١- ينظر: هل نعيش حقاً في عصر ما بعد الحداثة: (مقدمة المترجمة). وينظر: **البحث عن ما بعد الحداثة: ١٨ (دوريات).**

٢٢- ينظر: الوضع ما بعد الحداثي: ٤٠
٢٣- الحداثة وما بعد الحداثة تثبيت الأصول أم كسر النماذج (web).

الرفض التام للتاريخ الغربي[٢٤]. ولهذا، وصف اتجاه إيهاب حسن بكونه أسطولا لما بعد الحداثة، إذ استطاع هذا الناقد أن يجعل من مابعد الحداثة علما جديدا ونهجا متميزا للنقد. من خلال استيعابها حرية الشكل دون قيود Dada والسريالية، والرواية الفرنسية الجديدة، وجينيه وبيتس، والأدب الشعبي، والصحافة الجديدة

> **تنضبط ما بعد الحداثة إذن داخل خريطة مفاهيمية تقوم أساساً على النفي والتدمير والتجاوز والافتتان «بأخلاقيات الموت»**

أما جان فانتيمو، فيتابع ظاهرة ما بعد الحداثة في مجالها الفكري بالاستناد إلى جملة من المبادئ الأساسية، وهي: موت الفن، والعدمية وموت النزعة الإنسانية «humanism»، ونهاية التاريخ وتجاوز الميتافيزيقا. ويرى أن اكتساب الدقة في المفهوم الفلسفي لما بعد الحداثة لا يؤتي أكله إلا بالاستناد إلى الإشكالية النيتشويه للعود الأبدي، وإشكالية تجاوز الميتافيزيقا لدى هايدجر، بوصفهما المؤسسين لنظرية نهاية الحداثة وبداية عصر مابعد الحداثة[٢٥].

ويعمد الفيلسوف الفرنسي جاك ديريدا إلى استعمال استراتيجية التفكيك (Deconstruction) التي لا تعترف بسلطة المعنى والأنا ومركزية الحقيقة في النص، بل بالاختلاف والغيرية وتصدّع المعنى وتعدّديته. «كتابة، اختلاف، غيرية، تقويض الميتافيزيقا وتفكيك سلطة المعنى»... تشكّل هذه المفردات مفاتيح في فلسفة ديريدا النقدية[٢٦]. وقد كان «المنطلق الأساس للتفكيك هو تقويض فكرة الحضور التي كرستها الحضارة الغربية من قبل، بغية فسح المجال لإحلال فكرة الاختلاف والتعدد»[٢٧]، إذ عمل على إنقاذ التفكير الفلسفي من ورطة فلسفة الالتزام التي حاكتها بعناية وعبر تاريخها الميتافيزيقا الغربية، ابتداءً من أفلاطون الأب الروحي للميتافيزيقا، إلى أنه استند إلى نيتشه في إرساء المفهوم، بوصفه لبنة من لبنات مشروعه وانتهاءً بهايدجر، إذ يرى ديريدا أن الفكر المعرفي الغربي برمته كان أسير ماسماه بـ «ميتافيزيقيا الحضور»[٢٨*]

٢٤- إيهاب حسن وعذابات إدراك الأدب ما بعد الحديث: صبحي حديدي (web)

٢٥- ينظر: نهاية الحداثة: جان فانتيمو: ٣ فما بعدها. ولمزيد من الاطلاع على مفهوم العدمية ينظر: نيتشة: جيل دولوز: ٩٥، وأفول الأصنام: ٤٩ فما بعدها.

٢٦- ينظر:المنهج التفكيكي والاختلاف... دريدا نموذجاً (web).

٢٧- النقد الأدبي الحديث ؛ قضاياه ومناهجه: ١١٧

٢٨* «إن الكل المادي الثابت المتجاوز (المبدأ المادي الواحد) الذي تنضوي تحته الذات والموضوع،هو جوهر الميتافيزيقا الغربية منذ عصر النهضة. ومؤخراً تم استخدام مصطلح الحضور، والحضور هو مقولة قبلية أو مبدأ نهائي واحد تستند إليه كل الفلسفات، دينية كانت أم علمانية، ولا يمكن أن يقوم نظام فلسفي دون هذا «الحضور» – فهو الأرضية التي يستند إليها أي نظام فلسفي (الأساس- الركيزة النهائية». وعادة ما يوضع الحضور في مقابل الغياب. وقد سمى نيتشه هذا الكل المتجاوز؛ ظل الإله الماثل في العالم بعد موت الإله. «، التحديث والحداثة: عبد الوهاب المسيري: ٦١

التي أنتجت حضارة إنسانية مشوهة بالحروب والجرائم على المستوى السياسي والاقتصادي والعرقي، فكرست الفردية بدلاً من التعددية، والوحدة بدلاً من الاختلاف. ولابد من الإشارة إلى أن نيتشه سعى إلى نسف جميع أسس ميتافيزيقيا الحضور، بل أسس الحضارة المسيحية الغربية بالكامل. فما دام «الأصل ليس أصلاً» أو أصيلاً. يفقد الإنسان قدرته على تثبيت الاشياء بوصفها حقائق ثابتة. ويفقد قدرته على التقسيمات الموثوق بها، مثل «الذات» و«الموضوع»، و«الإرادة» و«الحقيقة»... لأنها ليست سوى أكذوبة[٢٩]. وقد ابتدأ نيتشه بالثورة على منطق التفكير الديني، وقلب معايير القيم الأخلاقية، وزعزعة أسس المنطق الأرسطي، فكان -بعد تعرية الإنسان من القيم الأخلاقية لصالح الغريزة، بعد - أن أعلن عن «موت الإله»، المتمثل بأخلاق الشفقة المسيحية الكنسية، مبشراً بالإنسان الأسمى. ولم يكن هذا إعلانا عن موت الميتافيزيقا كفكرة دينية فحسب، وإنما نهاية التسليم بالتجاوز كلية، ولكن إذا كان موت الإله هو مشهد ثقافي عرفته الحضارة الأوروبية آنذاك، فإن ظلال الإله لم تبارحها، وقد أفضت حفريات نيتشه في المعرفة الفلسفية إلى أسئلة نقض وهدم لكل المطلقات المعرفية، واضعاً التفكير عند نقطة الصفر، معوِّلا على إرادة القوة وحدها، التي يمكنها أن تبني الإنسان الذي بشر به[٣٠].

ولكن بالاستناد إلى نيتشه لم يقصد ديريدا تفكيك المركزية الغربية فحسب، بل عمد إلى نقد أشكال الهيمنة التي طرحتها الحداثة ومن أبرزها الإيديولوجيا[٣١]. ويقوم التفكيك

٢٩- ينظر: الخروج من التيه: ١٠٧

٣٠- ينظر: سؤال ما بعد الحداثة: أ.رحماني ميلود (web)، ونيتشه وجذور ما بعد الحداثة: ٢٧٣فما بعدها، وأفول الأصنام: ٥٢- ٥٣، ٨١ فما بعدها.

٣١- ينظر: أفول الأصنام: ٦٥. والمنهج التفكيكي والاختلاف (web) وللاستزادة: ينظر: التفكيكية؛ دراسة نقدية: ٩ فما بعدها. ولابد من الإشارة إلى أن ما بعد الحداثة قد تعرضت للنقد أيضا، فهي **تصل في النهاية إلى ما وصل إليه التقويض، تصل إلى طريق مسدود. فهي، وإن** «حاربت أشكال الهيمنة والظلم تظل عاجزة عن تقديم البديل الواقعي الثقافي. ..فهي تبقى معلقة غير فعالة على مستوى الثقافة العامة والخاصة. فإن هي حاربت التحيز باسم الحياد، فإن الحياد المطلق باعتراف طروحاتها هي نفسها، سينقلب إلى تحيز. وإن هي حاربت المركز والمركزية باسم الهامش، فإن الهامش نفسه سيصبح مركزاً آخر يتسم بنفس صفات المركز والمركزية.. كما أن دفاع الما بعد الحداثة عن الهامش جعلها تتقمص خصائصه، فأصبحت هامشية لا تغير من

لدى ديريدا على جملة من المقولات الأساسية من مثل تنظيم استراتيجية في القراءة والتأويل، وتصديع بنية الخطاب والكشف عن أنساقه المضمرة في شبكته الدلالية، ومقولة «الاختلاف» La difference، ويقصد بها الإزاحة في اللغة التي تختزن جملة من متغيرات الحضور والغياب، ومقولة رفض «التمركز حول العقل» Le logocentrism الذي استند إليه لرفض الإحالة إلى سلطة مطلقة موثوق بها[٣٢]. ويؤكد ديريدا على عدم ارتباط مشروعه بالعدمية، بل يرى أن قراءته التفكيكية/ التقويضية قراءة مزدوجة، تسعى إلى دراسة النص دراسة تقليدية أولاً، لإثبات معانيه الصريحة، ثم تسعى إلى تقويض ما تصل إليه من معان في قراءة معاكسة تعتمد على ما ينطوي عليه النص من معان، تتناقض مع ما يصرح به؛ أي أنها تهدف إلى إيجاد شرخ بين ما يصرح به النص وما يخفيه. وهذا يدعوه كسر مركزية المعنى الواحد للنص، ومنح اللغة دوراً حراً بوصفها متوالية لانهائية لتعدد المعنى واختلافه، مما يسهم في إثراء فعالية القراءة، والخروج من سجن اللغة ومركزيتها المؤدلجة[٣٣].

ولابد من التنويه إلى أن تلك الطروحات قد أثرت على نحو مباشر أو غير مباشر في حقول معرفية أخرى من أهمهما علم النفس الذي استند إليها في تحديد الهوية الذاتية؛ إذ «ترى ما بعد الحداثة أن اللغة هي أحد أهم العوائق نحو معرفة الحقيقة. فاللغة هي وسط المعرفة، ولكنها تبعاً لما بعد الحداثة لا يمكنها أن تعبر عن الحقيقة بكفاية، ذلك لأن هناك شرخاً كبيراً بين الكلمات والحقائق التي يفترض أن تعكس فحواها. فالكلمات لن تعرض الحقيقة الموضوعية، لأنها ـ أي اللغات ـ أفكار بمعنى أنها اتفاقيات بشرية. وعليه، فإننا لن نتمكن من معرفة الحقيقة الموضوعية، إذا ما وظفنا هذه الاتفاقيات البشرية. وكل ما يمكننا أن نحصل عليه هو خلق الحقيقة بوساطة الكلمات. وهذا هو جوهر النظرية البنائية constructivism. وذلك يعني أننا لن نتوصل إلى تقارير كونية عامة عن الإنسان، فضلا عن أننا لن نستطيع أن نحدد ما إذا كان هناك شيء، يمكن أن نطلق عليه الطبيعة البشرية. يقول ما بعد الحداثيين إنه لا يوجد طبيعة بشرية بحد ذاتها. نحن ما نقوله (نحن)عن أنفسنا»[٣٤]. انسجمت طروحات جاك ديريدا التفكيكية مع مفهوم ما بعد الحداثة، مما حدا ببعض الباحثين إلى أن يختزلوا تعريف ما بعد الحداثة بأعمال جاك ديريدا، كما هي الحال عند روبرت يونج، في مقدمته لكتاب (Untying the text) المتضمن مجموعة من المقالات النقدية[٣٥]. وهذا ما يجعل جاك ديريدا من أهم الفلاسفة المعاصرين، الذين أفادوا من فكر نيتشه في تقويض التمركز الغربي واليقينية التي نضحت بها متون الحداثة.

الواقع شيئاً.» ينظر: دليل الناقد الأدبي: ٢٢٨

٣٢- ينظر: الكتابة والاختلاف:٧. وموقف ديريدا في سياق الدراسة الوافية لاستراتيجية التفكيك يعود برمته إلى نقد نيتشه للميتافيزيقا وثوابتها، مثل مفاهيم السببية والذات والهوية الحقيقية. .. إن تفكيك المفهوم التقليدي للسببية باعتبارها القانون الذي يحكم العلاقة بين السبب والنتيجة أو العلة والمعلول. لقد ظل قانون السببية وفي ضوء مفهوم logocentrism، أحد القوانين الأساسية التي تحدد نظام الكون. قانون السببية هذا في صيغته التقليدية. يقوم على السبق الزمني لفعلٍ على آخر. .. يسقط حجر فوق راس مارٍ في الطريق فيشج رأسه (سبب ونتيجة).. ذلك هو السياق في مفهوم ميتافيزيقا الحضور أو logocentrism. لكن نيتشه يرى أن القانون الذي يحكم السببية هو قانون التتابع الزماني. قانون مقلوب ومعكوس. يقوم على إدراك النتيجة قبل السبب. فعندما يشعر الإنسان بألم في أصبعه والألم هنا نتيجة جرى إدراكها أولاً، يبدأ بالتحرك إلى الوراء زمانياً باحثاً عن سبب الألم. وحينما يكتشف دبوساً ملقى على الأرض يربط الوخزة. ..والألم. .. ليقوم الإنسان – هنا- بإعادة ترتيب السياق منطقياً. ... ليقول لغن وخزة الدبوس كانت سبباً في إدراك الألم. وهكذا يقوم الإنسان بقلب السياق إلى (دبوس – ألم)، وهو عكس السياق الذي مر به أصلاً « ألم – دبوس) بحسب ما يرى نيتشه. ينظر: الخروج من التيه: ١٠٥

٣٣- ينظر دليل الناقد الأدبي: ٥٠ والنقد الأدبي الحديث؛ قضاياه ومناهجه: ١١٩

٣٤- بين الأدب والفن والنفس؛ اتجاهات علم النفس ما بعد الحداثة (web).

٣٥- Look: Untying the text: A post- structuralist Reader: p.viii وللاستزادة ينظر: النقد الثقافي؛ تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة: ٢٩ فما بعدها، والنقد الثقافي تنظيراً وتطبيقاً: ٤ فما بعدها (رسائل)،النظرية والنقد الثقافي: ١٢ فما بعدها.

المترجم والناقد المغربي شكير نصر الدين لمجلة «ذوات»:

واقع الترجمة عربياً لا يختلف عمّا يعرفه ترويج المُؤَلَّف المكتوب



تشكل الترجمة رافداً أساسياً من روافد الأدب والفكر الإنساني عموماً. والواقع أن هذا الرافد، أثار ويثير من الإشكالات والقضايا ما يستلزم التأمل وتمعين التفكير، بغاية الاهتداء إلى الصورة الحقة لنموذج الترجمة المتغيا والمطلوب.

على أننا في هذا الحوار مع المترجم والناقد المغربي شكير نصر الدين، ومن خلال تجربته العميقة، والنص الموصوف والموضوع، نسعى إلى استجلاء واقع الترجمة، والممارسة النقدية التي يحرص من خلالها على دراسة بعض الظواهر الأدبية ومقاربة النصوص نثراً وشعراً.

وتحق الإشارة هنا إلى أن ما يتفرد به الأستاذ شكير نصر الدين، التزامه بتقديم التراث الأدبي والنقدي للناقد الروسي «ميخائيل باختين»، حيث ترجم له من الكتب: «جمالية الإبداع اللفظي» (دار دال/سوريا) وتصدر طبعة ثانية له عن (دار رؤية /مصر)، ثم «الفرويدية» عن الدار المصرية نفسها، و«أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية» (دار الجمل/بيروت ـ ألمانيا)، إلى جانب ترجمات أخرى، لنا أن نذكر منها: «أليس في بلاد العجائب» لـ «لويس كارول» (المركز الثقافي العربي/بيروت ـ الدار البيضاء)، و«فتاة من ورق» لـ «غيوم ميسو» عن الدار نفسها، ثم كتاب «القراءة»، وهو ترجمة موقعة برفقة الكاتب والمترجم المغربي محمد آيت لعميم، وهي لـ «فانسان جوف» وصدرت بمراكش، ثم «النقد الأدبي» لـ «جورج روجي»، وصادر عن «دار التكوين» بدمشق/سوريا.

أجرى الحوار: صدوق نورالدين



هل يمكن تحديد مفهوم دقيق للترجمة؟ وبالتالي، ما الفرق بين الترجمة والتعريب؟

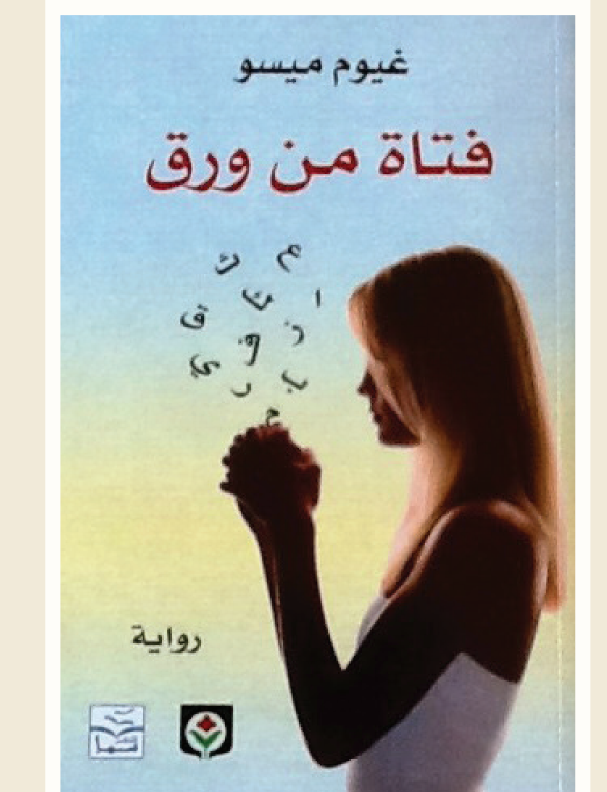
لا يسع المرء أن يقدم تحديداً جامعاً مانعاً للترجمة، باعتبارها من المفاهيم الإشكالية التي أثارت الكثير من الجدل عبر التاريخ، محلياً وعالمياً، لكن مع ذلك، هناك اتجاه غالب اليوم إلى اعتبارها تواصل عبر لغتين، لكل منهما مميزاتها وامتدادها التاريخي والفكري والثقافي. الترجمة وفق هذا المنظور، وساطة لغوية تراعي السياقات المتشعبة الخاصة بكل من اللغة المنقول منها وتلك المنقول إليها؛ مما يعني اعتبار اللغتين في اختلافهما وائتلافهما في وقت معاً. ولعل ذلك، قد يقودنا إلى الفرق بين التعريب والترجمة، وهو فرق منهجي، إذ ليس هناك حدود جازمة بين كل من الفنين؛ قد يبدو التعريب من منظور الاشتغال اللساني الصرف تعصباً لنقاء اللغة المستهدفة، العربية في حالتنا، بحثاً عن اللفظ الخارج من صلب العربية، للتعبير عما تم إنتاجه في ثقافة وفكر وعلوم مغايرة؛ أي نقل المفردة النواة، وكأن هناك معنى جوهرياً في اللفظ، وبالتالي فإن هاجس وحدة اللغة العربية وانسجامها الداخلي (تركيباً وصرفاً ودلالة) والخوف عليها من ذلك الدخيل، غالباً ما أدى إلى الكثير من المضحكات، إن مثل هذه النظرة الضيقة لفن التعريب، لا يمكن أن يدافع عنها المرء، إذا كان المسعى من التعريب هو خلق المثيل، في حين أنه يخلق وَهْم المثيل. ما يهمني في التعريب هو التقريب، لا التغريب، والتغريب غير مستحب في الترجمة أيضاً، ومن هنا ما يبرر ما ألمحت إليه آنفاً، من أن ليس هناك حدود جازمة بين التعريب والترجمة، إذ ينبغي النظر إليهما فيما يصل بينهما؛ أي أن يستلهم المترجم دقة وصرامة المعرِّب دون الانغلاق على مكون المفردة، وإنما الانفتاح على سياقاتها التداولية المتشعبة، لا الانحصار في وهم نقاء وصفاء العربية، وإنما اعتبار التداخل بين اللغتين، بصفة كل منهما حمَّالة لفكر إنساني، وليس لوثوقية متعصبة (وهم القطر أو الوطن أو الأمة)، ما يجب هو إعمال التكامل بين التعريب والترجمة.

الترجمة وساطة لغوية تراعي السياقات المتشعبة الخاصة بكل من اللغة المنقول منها وتلك المنقول إليها

لقد وازيت بين ترجمة الإبداعي متمثلاً في جنس الرواية، والفكري مجسداً في العلوم الإنسانية... ترى أين يكمن الفرق؟ بمعنى آخر، أين تجد ذاتك أكثر؟

بالتأكيد هناك فرق من زاوية الانتماء الأجناسي، لكن مرة أخرى، أحب النظر إلى المسألة من زاوية الوصل لا الفصل. والجامع بين ترجمة الرواية مثلا والبحث الفكري هو وضع القارئ الذي يؤول السياقات اللغوية والفكرية والثقافية، المترجم قارئ موسوعي بامتياز، إذا كان فهمنا للرواية يصدر عن اعتبارها جنساً أدبياً منفتحاً غير مكتمل، قابل للتعبير عن مختلف الخطابات، فإن مترجم الرواية لا يسعه التعامل معها بصفتها جسداً لغوياً صرفاً. عملياً، يصادف المترجم الصعوبات نفسها التي تتصب أمامه في ترجمة كتاب فكري معين، تضاف إليها الصعوبات المحيطة باللغة المجازية، الاستعارية وانزياحاتها الخاصة بجنس الرواية. عملياً، أثناء ترجمة الرواية، يجد المترجم كلام الفيلسوف وكلام المؤرخ، وكلام السياسي، وكلام عالم اللاهوت، إلخ، كما أن مترجم عمل نقدي قد يجد في هذا الأخير، مقتبسات من رواية أو قصة، أو من نص شعري.

شخصيًا كل ترجمة هي عندي مغامرة، لها مخاطرها الممتعة، أدخل غمار ترجمة الرواية أو العمل الفكري المحض بالاستعداد النفسي عينه. لكن في حالة الرواية، دائماً أتوقع المفاجآت، لأن الرواية كما أسلفت جنس منفتح، على العلوم والمباحث والثقافات المتنوعة، وعلى سبيل المثال، يكفي أن تدخل شخصية روائية إلى مطعم أو متجر لبيع الورود أو



ميخائيل باختين

أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية

في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة



ترجمة وتقديم:

شكير نصر الدين

منشورات الجمل

مصنع، وما على المترجم حينها سوى الاستعداد لمواجهة ذخائر متشاكلة من الأطعمة والمذاقات والعطور والألبسة والآلات. ومن هنا استلزام الموسوعية، على أن الدقة مطلوبة في المجالين معاً. أما عن أيهما الأقرب إلى القلب، فإني أعتقد بكل صدق أني أجد متعة في المجالين معاً، ما يشبه الانخطاف، إذ بالنظر إلى الكتب التي صدرت لي، أو هي قيد الطبع هناك ما يشبه التوازن، وإن كنت قد دأبت منذ ثمانينات القرن الماضي على نشر الدراسات الفكرية، من نقد أدبي وفلسفة عموماً، فقد تخللتها بعض النصوص الأدبية، مثل ترجمتي لفصول من رواية نطالي ساروت، «طفولة» التي لاقت استحسان القراء حينما نشرت في حلقات ذات رمضان من سنوات التسعينيات. أظن أن ممارستي للنقد الأدبي، كان لها هذا الدور في خلق التوازن لدي؛ وبالتالي التصدي للجنسين معاً، يبدو لي منسجماً مع تصوري النظري والجمالي للأعمال، باعتبارها في تكاملها، لا في انغلاقها.

النقد عندنا نقود ـ جُزُر منفصلة، كل يشتغل في مجاله، ولا ينظر إلى ما يستجد في المباحث الأخرى

يمكن القول بأنك أوليت آثار «ميخائيل باختين» اهتماماً كبيراً، حيث أقدمت على ترجمة أهم مؤلفاته...ما العوامل التي دفعتك لذلك؟ وهل الحاجة إلى تصورات «باختين» عن الكتابة واللغة قائمة، وإلى اليوم؟

بالفعل لدي اهتمام بأعمال المفكر الروسي الكبير ميخائيل باختين، منذ ما يقارب الثلاثة عقود، أولا لأني قارئ ثم مترجم، إذ كنت قد نشرت ترجمة دراستين من كتاب «جمالية الإبداع اللفظي» بداية تسعينيات القرن الماضي، ومذاك الأوان، وأنا أشتغل على هذا الكتاب الذي كان جاهزاً للنشر سنة ١٩٩٧، ولم يكتب له ذلك إلا سنة ٢٠١١ بفضل «دار دال» للنشر والتوزيع (سورية)، وهو بالمناسبة كتاب يضم أعمال المفكر الروسي التي تمتد على مدى أكثر من خمسة عقود (١٩٢٠، ١٩٧٤)، لقد حرصت على نشر هذا الكتاب، لأني وجدت فيه ما يصحح النظرة الاختزالية والتبسيطية التي هيمنت على الدرس النقدي العربي بخصوص هذا المفكر، حيث إن السائد في التمثلات والتطبيقات النقدية العربية لنصوص باختين هو الاختزال والاجتزاء، إذ يتم اختصار أطروحاته الفكرية والنظرية في أطر مرجعية ومدارس نقدية هو أرحب منها ولا تتسع لمفكر أسس نظره على تكامل المعارف وتداخل تخومها. وهكذا يتم حصره مثلاً، إلى جانب خانات أخرى في «سوسيولوجيا الأدب» أو في «الأيديولوجيا الماركسية» أو غيرها، بل إن هنالك من يعدد وجوه باختين الكثيرة، حيث يتم ذكر باختين الأيديولوجي والسيميائي وفيلسوف اللغة وعالم الثقافة، أو يتم الاكتفاء بالحديث عن البوليفونية أو الحوارية، والظفر منهما بالقشور دون أدنى جهد لتأصيل التصورات والمفاهيم. وترجمتنا تلك، كانت تسعى إلى تصحيح تلك الصورة المشوهة، بل والمغلوطة عن مفكر، كان المبدأ الأساسي في رؤيته لكل الظواهر هو مبدأ الوصل أو التمفصل، مما يتيح قراءة جديدة للمنجز الباختيني، واعتبار المفكر وفكره بالنظر إلى كل تلك الوجوه المذكورة في اتصالها وليس في انفصالها، إذ كيف يعقل حصر مفكر اللااكتمال والانفتاح والحوارية داخل خانات تحدِّ وتقصي. فكر ينبني على التلاحم لا التنافر، تلاحم الفهم والمعرفة الإدراكية والتبادل





اللفظي؛ الحوار والمونولوغ، المتكلم والمخاطب، الهوية والتعدد، الكوني والمحلي، التلفظ والملفوظ.

على أن المتلقي العربي، للأسف فيما يخص باختين، اكتفى منه بما راج في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، ولم يعمل على الإفادة منه، مثلما يفعل البحث الأكاديمي الفرنسي، وأضرب لذلك مثال الباحث المجدد المعروف، جان ميشال آدم الذي لا يتوقف عن الاستناد إلى منجز باختين، وإلى «جمالية الإبداع اللفظي» على وجه الخصوص في تدعيم مشروعه النظري الذي يتمحور حول اللسانيات النصية وتحليل الخطاب، كما في كتابه «أجناس المحكيات، سردية النصوص وأجناسيتها» (٢٠١١) على سبيل المثال لا الحصر. وللقارئ أن يضع الدراسات المتضمنة في ترجمتنا «جمالية الإبداع اللفظي» في سياقها التاريخي، ليتبين بعد اطلاعه عليها، كم كان باختين رائداً وسباقًا في العديد من المباحث المتخصصة، والوقوف عند الراهنية المستمرة لفكر هذا الباحث، ومقدار الحاجة الملحة في الفضاء الثقافي العربي إلى الأخذ من معينه الذي لا ينضب؛ وإيماناً مني بالحاجة الملحة إلى الإفادة من هذا المفكر الموسوعي، عمدت إلى ترجمة كتابه «أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة»، ثم كتابه «الفرويدية»، وهما معاً قيد الطبع؛ وإذا كانت مكتبات العالم تضم بين رفوفها ترجمات عديدة لمؤلَّفه عن رابليه بلغات مختلفة، فإن المكتبة العربية والحقل النقدي العربي، ظلا ينهلان مما جادت به تلك المكتبات في صورة مقتبسات

هناك بالطبع، معاهد تعنى بالترجمة، وتقدم أعمالاً رصينة، لكنها تظل حبيسة رفوف خزاناتها

من هنا أو هناك، مع ما يحمله ذلك الفعل من اختزال، بل وتعسف. ولهذا السبب، أصبح من الضروري الاعتماد على ترجمة عربية كاملة لهذا المرجع الذي ما للناقد من محيد عنه. أما كتابه «الفرويدية »، فإنه سوف، يظهر للقارئ العربي أن «ميشال أونفري» الذي تصدى لسيغموند فرويد في كتابه «أفول صنم، الأكاذيب الفرويدية، (٢٠١٠) كان له سلف سبقه إلى إظهار تهافت الفرويدية، سنة ١٩٢٧، ولعل في ذلك دليل آخر على نبوغ المفكر الروسي الذي كان وما يزال سباقا إلى العديد من المقاربات النظرية الرصينة.

هنالك آثار أدبية وفكرية عالمية ترجمت أكثر من مرة، فهل تجد مبرراً مقنعاً لذلك؟

قد تتم إعادة ترجمة الكتاب الواحد لسببين؛ أولهما يتصل بجودة الترجمة، إذ حينما يكون النص المترجم معيباً، فإن إعادة الترجمة ضرورية حينها، والعيب قد يتصل بالكم أو بالكيف، أو بهما معا، حيث هناك من الترجمات التي تحافظ على العنوان الأصلي للنص، في حين أنها لا تضم سوى جزء منه، وهناك من المترجمين من يعمل المقص حاذفاً ما عجز عن ترجمته، أو ممارساً رقابة ما عما لا يتفق وأهواءه، وثانيهما قد نجد تبريراً له في المسافة الزمنية بين إنتاج النص وتلقيه، وإن كنت لا أتفق كثيراً مع هذا المسوغ. صحيح أن للتاريخ فعله في تغير التلقي، لكن إذا كانت الترجمة الأولى جيدة، لا أجد مبرراً مقنعًا لإعادة الترجمة، اللهم لأسباب تتعلق بالناشرين وذوي الحقوق وغيرها

من الذرائع، التي لا تدخل في صميم عمل المترجم.

أنت تكتب في النقد الأدبي...فكيف ترى واقع النقد الأدبي العربي اليوم؟

بعد فترة الانبهار بالنقود الغربية، الشكلانية والبنيوية عموماً، الذي عمَّر لما يفوق ثلاثة عقود، يبدو أن النقد الأدبي العربي قد تخلص من سطوة شبكات القراءة الجاهزة، والتي كانت تجعل من مقاربة النص ذريعة، لاستعراض وإسقاط مفاهيم وتصورات نظرية أو فنية وجمالية. بعد أن هدأت هذه الفورة، وأصبح الاهتمام بالنص فيما يميزه نوعياً وأجناسياً وموضوعاتيا، نشهد اليوم انبهاراً بموجة أخرى من النقد، ألا هو النقد الثقافي، أو الذي يستند إلى مرجعية العلوم الاجتماعية والفلسفية. وكأننا استبدلنا مقولات الشكلانية والبنيوية وجمالية التلقي بالنقد الثقافي القديم ـ الجديد؛ وكأننا لا نمتلك ما يكفي من الجرأة للقيام بعملية الوصل، وصل في الزمنية الكبرى؛ أي النقد العربي المتعارف عليه بالقديم، استلهام منجزات تراثنا النقدي العربي القديم الطموحة، وليس تكرارها، ولعل المسعى الجسور للناقد العراقي عبد الله إبراهيم يسير في هذا الاتجاه، ربط الماضي بالحاضر، قد لا يصيب في كل استنتاجاته، لكن له بالتأكيد أجر الباحث المغامر الذي لا يستكين إلى الجاهز؛ أو في الزمنية الصغرى، وأقصد بذلك الوصل بين المنجز النقدي في عصرنا الحالي عند عبد الفتاح كيليطو، ومحمد مفتاح، وسعيد يقطين مثلا، وأبحاث عبد الكبير الخطيبي، ومحمد جسوس، وعبد الله حمودي، وطه عبد الرحمان، على سبيل المثال لا الحصر، في الحالة المغربية التي قد نقيس عليها ما يعيشه النقد العربي عموماً. والحاصل، أن النقد عندنا نقود ـ جُزُر منفصلة، كل يشتغل في مجاله، ولا ينظر إلى ما يستجد في المباحث الأخرى، وبالتالي فإن النظر النقدي يقصر عن الرؤية إلى العمل الأدبي بصفته أولا وقبل كل شيء أثر لنشاط لفظي إنساني رهين سياقات اجتماعية، اقتصادية، وسياسية.

لا أعرف، إن كانت الشروط الموضوعية لمثل هذا المشروع المنفتح قد نضجت بعد، لكن ألا يجدر بنا أن نعمل في اتجاه تكامل المعارف التي ستكون ثمارها على الأقل من بيئتنا، وليس الاستمرار في التعيش على ما ينتجه الغرب، كلما لفَظَ منهجاً هرعنا إليه نقتات من فتاته؟ هذا لا يعني الانغلاق، لكن ألم نجرب ما جادت به علينا المكتبات والجامعات الغربية؟ لِمَ لا نستلهم السيرورة الابستمولوجية لتطور تلك النقود والنظريات الغربية وتمازجها، ونشتغل على منجزاتنا، بما لها وعليها.

هل ثمة من آفاق مستقبلية للترجمة في العالم العربي؟ وما مشاريعك القادمة؟

ظاهرياً، يبدو وكأن هناك صحوة يعرفها مجال الترجمة عربياً، وهي نابعة من استشعار تخلفنا عن باقي العالم، والأمر لا يعدو كونه تعبير عن حاجة ملحة إلى جسر الهوة الشاسعة بيننا وبين الآخر، لكن الحقيقة أن واقع الترجمة عربيًا لا يختلف عما يعرفه ترويج المؤلف المكتوب بالعربية أصلا، لأن تدارك التخلف في هذا المجال أخذ شكل التصدي الكمي، ولم يعر مقياس الجودة أي بال. الكثير من الترجمات، وهي بالمناسبة لا تغطي كل أجناس وأنواع المؤلفات (علوم إنسانية، علوم حقة، فنون، وغيرها) هي تغيير في اتجاه كتابة الحروف، من اليسار إلى اليمين، لا أكثر، كما أن المؤسسات التي تُعنى أصلاً بالترجمة (المعاهد والمدارس) تخرج أفواجاً من المترجمين لكن قلة منهم هي التي تعمل في المجال. أما البقية، فهم موظفون، مثل كل الموظفين في القطاعات الأخرى. صحيح، أن بعض المؤسسات المدعومة من قبل جهات رسمية أو خاصة تعمل على تدارك التأخر الحاصل، لكن ذلك الأمر، صاحبه تهافت غير ذوي الخبرة، مما نتج عنه إفساد لقيمة النص المنقول أكثر من تقديمه للقارئ العربي في صورة مقبولة. إن هذا التهافت قد يطول، ذلك أن الإغراءات المالية، تجعل من بعض المترجمين سامحهم الله يسيئون بصنيعهم ذاك إلى صورة العمل الترجمي، فضلاً عن الإساءة إلى النص الأصلي ودار النشر. هناك بالطبع، معاهد تعنى بالترجمة، وتقدم أعمالاً رصينة، لكنها تظل حبيسة رفوف خزاناتها، وإن خرجت إلى فضاء التلقي، فتنقصها جودة الورق مثلا، أو جمالية الغلاف، إذ كما هو معروف الكتاب هو قبل كل شيء سلعة، وبالتالي فإن ترجمات هذه المعاهد الأكاديمية لا تخلف أثراً في سوق الكتب المترجمة. وفيما يخص الآفاق، فالبقاء للجودة وللحرفية، والدقة العلمية، «أما الزبد، فيذهب جفاء».

> كل ترجمة هي عندي مغامرة، لها مخاطرها الممتعة. أدخل غمار ترجمة الرواية أو العمل الفكري المحض بالاستعداد النفسي عينه

وفيما يتعلق بمشاريعي القادمة، أنا أشتغل الآن على رواية من روايات جلبير سينويه، وعلى المدى القريب، ترجمة كتاب فلسفي آخر للمفكر الروسي ميخائيل باختين، وبصفة عامة المزاوجة بين ترجمة الإبداع والنقد الأدبي والفلسفة.

بقلم:
د. مصدق الجليدي
أستاذ باحث بمركز البحوث والدراسات بسوسة، رئيس فريق: «التربية جسر حوار بين الحضارات». رئيس تحرير مجلة «الفاعل التربوي».

ماذا يعنى أن أكون مربيــــاً اليوم؟

ماذا نعني بـ«اليوم» الوارد في عنوان هذه الورقة؟

بالتحقيب المعرفي: نعني بذلك، مواكبة المستجدات المعرفية المساعدة على مهنة التعليم.

بالتحقيب الثوري: نعني بذلك، ضبط ملامح المعلّم في الإصلاح التربوي المفضي إلى النظام التربوي المنشود.

بالتحقيب الاجتماعي: نعني بذلك، تحديد الوظائف الاجتماعية الجديدة للمربي في سياق مناويل التنمية المستحدثة، وهي المرتكزة على الرأسمال المعرفي.

أوّلا: ماذا يعنى أن أكون مربياً اليوم معرفياً؟

١- يعـني ذلـك بدايـة، أن أعمـل عـلى تعميـق معـارفي العلميـة التربويـة: فلسـفة التربيـة- علـم نفـس التربيـة وعلـم النفـس الاجتماعـي التربـوي- البيداغوجيـا- تعلميـة المـواد وغيرهـا مـن العلـوم التربويـة، حيـث لـم يعـد ممكنـاً اليـوم الاطمئنـان إلى مجـرد التجربـة والخبـرة، لضمـان تعليـم جيـد وفعـال؛ فمعلم اليـوم ينتمـي إلى العصـر الحديـث المتسـم بالعقلنـة والتخطيـط الاسـتراتيجي والاسـتباق أو الاسـتشراف، وانفصـال التصـورات عـن الممارسـة انفصـالاً يمكّـن الفـرد مـن أخـذ مسـافة عمـا يفعلـه بشـكل عفـوي أو بالتقليـد والتـوارث الثقـافي، ومـن الوعـي بمشروعيـة ممارسـته مـن حيـث النجاعـة والفعاليـة والأخلاقيـة. وليـس ثمـة أفضـل مـن العلـم، لإضفـاء كل هـذه السـمات وتحقيـق كل هـذه الـشروط اللازمـة للفعـل التربـوي الحديـث. هـذا العلـم هـو كمـا أسـلفنا علـم متعـدد في صيغـة الجمـع:

ما نلاحظه في بلادنا اليوم، هو نقص فادح في تلقي العلوم التربوية من لدن المدرسين في كل المستويات من الابتدائي، وصولاً إلى العالي مروراً بالثانوي

علـوم التربيـة الـتي تمكـن المعلـم المتشـبع بهـا مـن الانتقـال مـن مجـرد إدارة مناطـق الشـك (حيـث يصعـب التكهـن بالطـوارئ) إلى المقاربـة العلميـة الشـاملة والمتعـددة ومتمازجـة الاختصاصـات للظاهـرة التربويـة المركّبـة أو المعقـدة، وذلـك بمـا يضمـن أكـبر قـدر ممكـن مـن الفهـم المعمـق لهـا، لا بغيـة التطبيـق المبـاشر للنظريـات والنتائـج المسـتخلصة بشـأنها، حيـث إن تطبيقـاً كهـذا، يوشـك أن يوقـع صاحبـه في الوثوقيـة ويفقـده جـدوى التدخـل، ولكـن فقـط مـن أجـل الاسـتنارة بتلـك النظريـات الـتي سـتصلح فرضيـات عمـل يقـع الانطـلاق منهـا، ومـن أجـل الوقـوف عـلى مواطـن الضعـف والـتردد والتناقـض، بـين مـا يعلـن مـن نوايـا، ومـا يرفـع مـن شـعارات مـن جهـة، ومـا نجـده عـلى الميـدان مـن جهـة أخـرى، بحسـب تعبـير برنـار شـارلو، في كتابـه عـن رهانـات وتحديـات علـوم التربيـة. وللتذكـير، فـإن هـذه العلـوم الـتي لا تقـل عـن سـبعة عـشر علمـاً، كعلـم النفـس التربيـة وعلـم اجتمـاع التربيـة وفلسـفة التربيـة وتاريـخ التربيـة واقتصـاد التربيـة وعلـم التقييـم التربـوي والبيداغوجيـا (تعليـم الأطفـال) والأندراغوجيـا (تعليـم الكبـار) وعلـم التعليـم...إلـخ.

ومـا نلاحظـه في بلادنـا اليـوم، هـو نقـص فـادح في تلقـي العلـوم التربويـة مـن لـدن المدرسـين في كل المسـتويات مـن الابتـدائي، وصـولاً إلى العـالي مـروراً بالثانـوي؛ وذلـك لخلـل وظيفـي في مؤسسـة التكويـن التربـوي الأسـاسي والمسـتمر، وفي طريقـة انتـداب المعلمـين والأسـاتذة. وقـد تفاقـم الأمـر بعـد الثـورة، حيـث يلقـى بأفـواج منهـم، تعـد بـالآلاف في معمعـة هـذه المهنـة النبيلـة المعِـدّة للأجيـال القادمـة قيـادات وبنـاة المسـتقبل، مـن دون أدنى تكويـن بيداغوجـي ومـن دون أدنى إعـداد نفسي-اجتماعـي، يسـاعدهم عـلى بنـاء هويتهـم المهنيـة الجديـدة، ويمدهـم بالحـد الأدنى الـضروري مـن المعـارف والكفايـات التعليميـة.

وإذا أردنـا أن نقـدم مثـالاً عمليـاً عـن الفائـدة الـتي يمكـن أن يجنيهـا المعلـم مـن علـوم التربيـة، فإننـا نذكـر اسـتفادته المرجَّـحة مـن علمـين متكاملـين مـن علومهـا، وهمـا البيداغوجيـا والديداكتيـك. كلاهمـا يعنيـان بتحليـل تمشـيات التعليـم والتعلـم: الأولى مـن زاويـة العلاقـة التربويـة. أمـا الثانيـة، فمـن زاويـة المعرفـة؛ الأولى تسـتند إلى براديغـم نفـس-اجتماعـي-تواصـلي، والثانيـة تسـتند إلى براديغـم إبسـتمولوجي. تمكـن البيداغوجيـا المعلـم مـن حسـن إدارة الصراعـات النفـس-اجتماعيـة داخـل القسـم، والثـاني تمكنـه مـن حسـن إدارة التفاعـلات الاجتماعيـة-المعرفيـة، بمـا فيـه الصراعيـة منهـا. بـالأولى، يفتـح المعلـم وجـدان المتعلـم لتقبـل التعلمـات والرغبـة فيهـا، وبالثانيـة يسـاعده عـلى انفتـاح عقلـه لفهمهـا واسـتيعابها، حيـث إن الهاجـس الأسـاسي للديداكتيـك هـو كيفيـة الملاءمـة بـين البنيـة المعرفيـة (الابسـتمولوجية) للعلـم المـدروس والبنيـة الذهنيـة للمتعلـم الـدارس. فنحـن إذن، بهـذه الطريقـة، إزاء عَقديـن ضمنيـين أو صريحـين[١] يمضيهمـا المعلـم مـع التلميـذ: عَقـد بيداغوجـي (تواصـلي: الاحـترام والمـودة المتبادلـين) وعَقـد ديداكتيـكي (تعليمـي-تعلمـي: حـل مشـكل مطـروح مـن خـلال بنـاء مفهـوم علمـي جديـد). لا يمكـن أن ينجـح العَقـد الدياكتيـكي (التعليمـي-التعلمـي-المعـرفي) إلا بنجـاح وتطبيـق بنـود العَقـد البيداغوجـي (النفـس-اجتماعـي-التواصـلي).

إلى جانـب التكويـن البيداغوجـي والنفـس تربـوي والديداكتيـكي يحسـن بالمـربي أن يكـون ذا تفكـير فلسـفي تربـوي إشـكالي، يخلصـه مـن الوقـوع في أسر الوثوقيـة ويكسـبه عقـلاً نقديـا، كأن لا تتحـول

١- يتم المرور تدريجياً من المستوى الضمني في العقد إلى المستوى الصريح. من الجانب البيداغوجي، يكون هنالك تلميح وتربية بالقدوة الحسنة، ويحتاج أحيانا إلى التصريح عند حدوث اللبس في أذهان التلاميذ. عندما يضطر المعلم في بعض الحالات للتنبيه مثلا إلى أن الحركية المطلوبة في القسم هي حركية وظيفية من أجل تيسير تملك المعارف، وليست فوضى وهرجا فارغا. وفي الجانب التعليمي (الديداكتيكي) يصل المعلم بالمتعلم إلى المستوى الصريح تماما في العقد الديداكتيكي عند التصريح بالمفهوم العلمي أو الفلسفي الجديد الذي يأتي حلا للمشكل المطروح على نحو جيد.

الطرائق التربوية الحديثة في ذهنه مثلاً، إلى إيديولوجيا تضحي بما هو متين ومفيد في الطرائق التربوية التقليدية، مثل التنشئة على قيم الانضباط واحترام المعلم وتوقير العلماء، وبذل الجهد في طلب العلم والتضحية المؤقتة بالملذات من أجل بلوغ متعة الفهم والظفر بسعادة النجاح الباهر. فلسفة التربية هي التي تكسب عقل المربي المرونة البيداغوجية، بما تثيره فيه من شك في المسلمات، خصوصاً عند انسداد آفاق النجاعة أو الهبوط عن قيم الإنسانية. وإذا ما أردنا أن نصوغ العلاقة بين الفلسفة والعلم (فلسفة التربية وعلوم التربية)، فلن نجد أفضل من الصيغة التي عبّر بها بياجيه عن هذه العلاقة، عندما قال: «إلى الفلسفة يعود أمر طرح الأسئلة والإشكالات الجيدة وإلى العلم يعود أمر حلّها».

إلى جانب التكوين العلمي، لا بد للمعلم من خبرة كافية بمجال التعليم، وهذا ما يمكن له مراكمته مع الأيام، ولكن،

> هنالك اتفاق اليوم على أن التغيير الأهم في قدرات المتعلم المعرفية والميتامعرفية لا يتأتى من مجرّد العلاقة طفل-آلة، وإنما من الإمكانات التي تتيحها الآلة

ليس من الضروري الاكتفاء بمحض الخبرة الشخصية، بل إنه من المفيد جدّاً تبادل الخبرات والتجارب مع الزملاء، وعلى المشرفين على التكوين تقريب، مثل هذه الخبرات والتجارب للمعلمين، وتشبيكها وتنظيم ورشات لمناقشتها وتطويرها. وهذا ما يتطلب وضع استراتيجيات ملائمة للتكوين، تستحضر كل ما سبقت الإشارة إليه من رهانات، وترفع كل ما نوهنا به من تحديات.

٢- أن أتمكن من حسن استخدام تقنيات المعلومة والتواصل ومن حسن توظيفها في التعليم، يمكن عَدُّ تقنيات المعلومة والتواصل الرقمي ضرباً من المعرفة الفنية، التي لا غنى عنها اليوم للمربي. وقد وقع إدراجها في مناهج التعليم العالي الخاصة بالتربية والتعليم (ماجستير تكنولوجيات التعليم). غير أننا ننبه إلى أمرين مهمين من وجهة النظر البيداغوجية والتواصلية.

أولاً: إن مجرد التعويل على هذه التقنيات واستخدامها، لا يعدّ في حدّ ذاته دليلاً على التجديد البيداغوجي، اللهم إلا إذا توقفنا عند المعنى السطحي للتجديد، غير متأكدين من بلوغه مستوى البنيات الذهنية العميقة والسيرورات الذهنية العليا للمتعلمين، ومدى إسهام هذا الاستخدام التقني في تطويرها. فالملاحظ اليوم، بشكل ظاهر للعيان، أن عدداً متزايدًا من المدرسين يستخدمون هذه التقنيات الرقمية المتطورة بطريقة مكرسة للتلقين وغير مساعدة على تنشيط الذهن، وبناء المعارف والاتجاهات المنتظرة بناء ذاتياً؛ فهو استخدام لتقنيات جديدة باعتماد طريقة بيداغوجية قديمة: العرض والتلقين.

ثانياً: هنالك اتفاق اليوم على أن التغيير الأهم في قدرات المتعلم المعرفية والميتامعرفية لا يتأتى من مجرّد العلاقة طفل-آلة، وإنما من الإمكانات التي تتيحها الآلة لتعديل التنظيم الاجتماعي داخل مجموعة الفصل معلم/منشط-تلاميذ/أطفال؛ أي الأهمية المعطاة لأدوار كل من التلميذ والمدرّس (علاقة أفقية/ديمقراطية)، وإعادة توزيع مراكز الاقتراحات والقرارات وربما عقلنة ردود الأفعال أكثر، ودمقرطة الفعل التربوي أكثر. إن الذي يتغيّر بدرجة أولى هو كيفية التنظم حول الآلة، ومن ثمّ تأتي التغيّرات المعرفية الذاتية كنتيجة لهذه الواسطة الاجتماعية الثقافية المرنة جدّاً، والطيّعة جدّا والمساعدة جدّا. إن منظومات التفكير والتصرّف في المعلومات وإنتاجها المؤمّنة من شبكة معلوماتيّة متطوّرة ومتوزّعة بشكل مناسب، على مختلف الأطراف التربويّة، لا تلعب فقط دور وسائل تنمية معرفيّة، وإنما أيضاً كأدوات تنظيم اجتماعي مهمة جدّا للتفاعلات بين البشر.

ثانيا: ماذا يعنى أن أكون مربياً اليوم بيداغوجياً؟

يعني ذلك في الحقيقة، عدّة أمور منها:

أن أواكب باستمرار، التطورات الحاصلة في مجال المقاربات التربوية والتجديد التربوي، بالتأمل والتجريب والإضافة والتطوير: أي أن أكون ذاك المدرس الباحث المجدّد.

أن أتأمل في ممارساتي التربوية، لأتمكن من معرفة مواطن القوة أو الضعف والخلل فيها؛ أي أن أكون ذاك المدرّس المتأمّل، وهو ما ييسر لي:

أن أكون مستعدّاً، لتحمل جزء من المسؤولية في ما تردت إليه المدرسة التونسية من أوضاع سلبية: الفشل المدرسي- ضعف الأداء اللغوي- الالتجاء إلى الحفظ عوضاً عن



الفهم والتفكير المنطقي والعلمي- الانحطاط القيمي الخلقي- توتر العلاقة التربوية- تنامي ظاهرة العنف. بحكم أن انتظار تغير كامل المنظومة التربوية، لأشرع في العمل بكل رضا وغبطة ليس من الواقعية في شيء، فضلاً عن أنه سيكون على حساب أعداد كبيرة من المتعلمين الذين ستقودهم الأقدار، ليكونوا من بين تلاميذي. والأهم من كل هذا هو أنه مهما كان وضع المنظومة التربوية، فإن المعلم يظل دائماً، حجر الزاوية في أي بناء تعليمي، يروم أن يجعل من المتعلم حجر الزاوية في أي بناء تعلّمي. يقول نيتشه المتحسر على انحطاط التعليم الراقي في ألمانيا في عصره: «لقد غدا مجمل التعليم العالي (الألماني).. اليوم مفتقراً إلى الأمر الأساسي: الهدف، والوسيلة الموصلة إلى الهدف على حد سواء. أن تكون التربية، والثقافة هدفاً في حدّ ذاتها، وليس [الدولة] (الرايش)، وأن يكون ما يُحتاج إليه لذلك الغرض هو المربي، وليس مدرس الثانوية والأكاديمي، -ذلك ما نسيناه...ما نحتاج إليه هم مربون حائزون بدورهم على

> هل المدرسون مستعدّون لتحمّل المسؤولية في أداء تلاميذهم، أم إنهم يعزون ذلك الفشل إلى عوامل أخرى غير طرائق تعليمهم واختياراتهم البيداغوجية

تربية جيدة، عقول راقية، متفوقة، قادرة على إثبات كفاءتها في كل لحظة، في الكلام كما في الصمت، عقول مثقفة قد غدت ناضجة وعذبة، - وليس فظاظات عالمة تقدمها المعاهد الثانوية والجامعات «مرضعات راقيات» لرعاية الشباب. إن ما ينقص اليوم، بصرف النظر عن حالات استثنائية نادرة، هم المربون، الشرط الأولي للتربية: من هنا يتأتى انحطاط الثقافة «الألمانية». (نيتشه، غسق الأثان، منشورات الجمل، بيروت، بغداد، ٢٠١٠، ص. ٩٢). وما قاله نيتشه عن الألمان في عصره، يصلح في رأينا لرجال التربية جميعا في أي عصر.

وكل هذا يدفعني إلى: أن أسعى لتطوير كفاياتي البيداغوجية والتعليمية، وأن أراجع دوري في العملية التربوية لأكون:

مربياً قدوة لتلاميذي: قدوة أخلاقية وقدوة معرفية،

ميسراً للتّعلّم،

مرافقاً للمتعثرين في الدراسة، ولمن يجدون صعوبة في التكيف المدرسي،

صديقاً للمتعلم،

متعاوناً مع زملائي ومتبادلاً معهم الخبرات.

ولنتوقف بصورة أطول، عند قضية الفشل المدرسي، وأنماط العزو المتعلقة بها منطلقين من أحد النماذج التي نجدها شاملة ووافية بهذا الخصوص.

استنبط (Weiner ١٩٧٩) خطاطة معرفية، لتصفيف عوامل أربعة في العزو، هي: القدرة (أو الاستطاعة) والجهد وصعوبة المهمة وأخيراً الحظ، وذلك بحسب ثلاثة اتجاهات:

الاستقرار (مستقرّ- غير مستقرّ)

وموقع التحكّم (داخلي- خارجي)

وقابليّة التحكّم (قابل للتحكّم- غير قابل للتحكّم).

ممّا يمكّن الأفراد من بلورة اعتقاداتهم العزوية، استناداً إلى نموذج عاملي اثني عشري تمثله الصّنافة التالية:

أ. الاستطاعة: مستقرّة، داخلية، غير قابلة للتحكّم (مثال مؤهلات التلميذ وذكاؤه، بحسب التصورات الساذجة، لأن الذكاء في الحقيقة، كما تؤكد على ذلك المدرسة البنائية، ليس أمراً معطى بالكامل، بل إن الجزء الأعظم منه، يبنى من قبل الفرد في ظروف عائلية وثقافية وتربوية مناسبة).

ب. الجهد: غير مستقرّ، داخلي، قابل للتحكّم (مثال جهد التلميذ في المراجعة والتمرّن).

ج. صعوبة المهمّة: مستقرّة، خارجية، غير قابلة للتحكّم(مثال درجة صعوبة تملك الكفاية أو إجراء الاختبار).

د. الحظّ: غير مستقر، خارجي، غير قابل للتحكّم (مثال أن يكون الاختبار حول درس أعدّ له جيداً أم لا).

بطبيعة الحال، الأنماط العزوية الإيجابية هنا هي الأنماط الداخلية مع وجوب اعتبار المؤهلات قابلة دوماً للتحسين، وليست غير قابلة للتحكم.

لكن الأهمّ في نظرنا، وبالنسبة لهذه المداخلة، هو ما



أولاه الباحثون من اهتمام، بما إذا كان المدرسون يميلون إلى عزو فشل التلاميذ إلى أنفسهم، وبالتالي ما إذا كانوا مستعدّين لتحمّل المسؤولية في أداء تلاميذهم، أم إنهم يعزون ذلك الفشل إلى عوامل أخرى غير طرائق تعليمهم واختياراتهم البيداغوجية، وبالتالي يتنصّلون من تحمّل أية مسؤولية في أداء تلاميذهم (انظر كلارك وبترسون، ١٩٨٦، ص ٣٨٢).

وتكتسي هذه المسألة أهمية خاصّة، لأنها تحمل فرضية ضمنية، عملت بعض الأبحاث على التثبت من صحّتها، وتوصّلت إلى نتائج مهمة على هذا الصعيد، سنذكرها بعد حين.

تقضي هذه الفرضية بأنه في صورة رفض المعلّمين تحمّل المسؤولية في نجاح وإخفاق تلاميذهم، وبالتالي فشلهم في رؤية علاقة بين سلوكهم (التعليمي بكل أبعاده) وأداء التلاميذ، فإنّ هناك احتمالاً ضعيفاً في أن يعملوا على تحسين أداء التلاميذ، مقارنة بزملائهم الذين يتبنون النمط العزوي المعاكس، والذي هو نمط إيجابي. وقد تم التأكد بالفعل من صحة هذه الفرضية في عدّة أبحاث، من بينها البحث الذي قمنا به في دراستنا المعمقة حول نظريات المعلمين الضمنية.

فلقد قمنا (الجليدي، ٢٠٠٢) ببحث حول أثر أنماط عزو المدرسين واختياراتهم البيداغوجية (أو ما يسمى علمياً بنظريات المدرسين الضمنية) في تعلم التلاميذ وأدائهم المدرسي، في أربع ولايات من الجمهورية: قبلي وقابس عن جهة الجنوب، ونابل وتونس عن جهة الشمال والوطن القبلي، فتأكد لدينا وجود علاقة وثيقة بين الأمرين، حيث ثبت أن المعلمين أصحاب الأنماط العزوية الإيجابية هم أنفسهم المعلمون التيسيريون (بنسبة ١٠٠ ٪)، وأن الرافضين لتحمل، ولو جزء من المسؤولية في تعلم التلاميذ، هم الذين ظلوا تقليديين على الدوام في طرائق تعليمهم. كما ثبت لنا أن تلاميذ الأوائل أفضل أداءً من تلاميذ الأواخر، وذلك على نحو قطعي الدلالة إحصائياً، في المواد الست التي أجرينا فيها الاختبارات عليهم: الرياضيات والعلوم الفيزيائية والبيولوجية والقراءة والفهم والتاريخ والتربية المدنية.

وتتوافق نتائج بحثنا هذا مع نتائج أبحاث Baron et Cooper (١٩٧٧) وP. Gosling (١٩٩٢). ولعل الطريف في النتائج التي توصلنا إليها هو دحضها لنظرية التطبع والعائق الثقافي الاجتماعي، إذ وجدنا أن التلاميذ الذين يدرسون لدى معلمين بنائيين وتيسيريين أكثر مهارة في حل المسائل الرياضية مثلاً، من التلاميذ الذين نكبوا بمعلم غير تيسيري، ولو كان الأوائل في قرية جنوبية نائية (القلعة أو الفوّار)، والآخرون في قلب العاصمة (الصادقية أو كلود برنار) أو الأحياء الراقية المتاخمة لها (البحيرة).

خاتمة:

حاولنا في هذه الورقة المختصرة، الإجابة عن سؤال ملامح المربي المعرفية والبيداغوجية لمدرسة اليوم والمستقبل، فبينا أهمية الاتجاه الفلسفي التربوي النقدي وأهمية التكوين المعرفي في علوم التربية، وضرورة استخدام تقنيات المعلومة والاتصال في التعليم استخداماً اجتماعياً تفاعلياً تواصلياً، كما أكدنا على أهمية التجديد التربوي، والتأمل الذاتي في الممارسة التربوية، وشرحنا دور النمط العزوي الإيجابي إزاء مشكلة الفشل المدرسي في تحسين نتائج المتعلمين المدرسية.

وفي كلمة، على المربي اليوم، أن يضطلع بفعل التربية بما هي نماء وتنمية للقدرات والطاقات التي تستوجب علماً وحرصاً ومسؤولية.



إصدارات

إصدارات
إصدارات
إصدارات
إصدارات
إصدارات



صدر حديثاً ضمن منشورات مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»، وعن «المركز الثقافي العربي» ببيروت والدار البيضاء، كتاب جديد يحمل عنوان «مشكلة الأفعال الإنسانية بين الخلق «الاعتزالي» والكسب «الأشعري»» للباحث المغربي المتخصص في الفكر الإسلامي محمد آيت حمو.

جاء في تقديم هذا الكتاب، أن «معضلة الأفعال الإنسانية شغلت حيّزاً رحباً في خريطة علم الكلام، وهو حيّز مبرّر ومشروع، إذا أدركنا أن الحديث عن هذه المشكلة في الإسلام لم يكن متعة فكرية أو رياضة ذهنية أو مقطوع الصلة عن الهموم السياسية والاجتماعية التي كان المجتمع الإسلامي غارقاً فيها، بل كان حديثاً مثقلاً بهموم الواقع.

وتضيف المقدمة أن «الظروف التي حدت بعلم الكلام إلى الظهور في الماضي، ما زالت تتمتع بحضور أقوى وأخطر وأنكى في عصرنا، الذي أبى إلا أن يدق طبول «صراع الحضارات»؛ فما أحوجنا إلى إحياء وتحيين الفكر الكلامي للدفاع عن العقيدة، بل إننا في أمسّ الحاجة، حسب بعض الباحثين، إلى تجديد مادة علم الكلام، بعد أن أصبح الهجوم لا يستهدف العقيدة فحسب، بل يتعداه إلى الهجوم على الأرض والشعوب والحضارة. لذلك، فـ»إن إحياء علم الكلام وتفعيله وإعادة فهم العقل والعقيدة، آخذين بعين الاعتبار ظروف العصر، أمور قد تكون على الأمد الطويل، أحد المخارج من أزمة العصر، وهو حصار الأمة بين نخبة أخذت علمها من الغرب ويائسة من التراث القديم، وأغلبية تقدم التراث القديم دون أن تجدده».

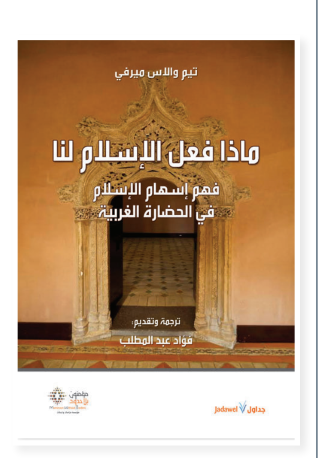
وتهدف هذه الدراسة التي حصل بها الباحث محمد آيت حمو على شهادة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية عام ٢٠٠١ من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط، إلى رصد مفهوم «الخلق» الاعتزالي ومفهوم «الكسب» الأشعري، لأن المعتزلة والأشاعرة هما قطبا الرحى في علم الكلام، وإلى الإبانة عن تطور مفهوم «الكسب» الأشعري من أقصى الجبرية، حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى من حرية الإرادة والاختيار لدى المعتزلة.

وإذا كانت الأشعرية هي الفرقة الكلامية التي قُيِّض لها أن تحيا وتسود لاعتبارات عدة، فإن أقطابها مدينون - شئنا أم أبينا - لخصومهم المعتزلة بدَين لا يرد، ولهذا رغب الباحث الخوض في هذا الأمر، وأدواته في تحقيق ذلك مصادر الكلام وأصول الفقه التي عوّل عليها دون وسائط تأويلية أو تبسيطية.

وتجدر الإشارة إلى أن الباحث المغربي محمد آيت حمو متخصص في الفكر الإسلامي، فهو من مواليد ١٩٦٨ بإقليم الحسيمة (شمال المغرب أو ما يعرف بالريف)، حاصل على شهادة التأهيل الجامعي في الفلسفة عام ٢٠٠٧ من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز بفاس، في موضوع «فضاءات الفكر في الغرب الإسلامي»، وشهادة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية عام٢٠٠١ من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط. يعمل أستاذاً للفلسفة الإسلامية والفكر العربي المعاصر بشعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز بفاس، منذ عام ٢٠٠، وهو عضو مركز الدراسات الرشدية الذي يرأسه الدكتور أحمد علمي حمدان بكلية الآداب بفاس، وعضو مشارك في تصور مشروع معجم الكلام والفلسفة في مركز الدراسات الرشدية بفاس، وعضو مجموعة معجم الكلام والفلسفة.



صـدرت لـه العديـد مـن الأبحـاث والإنتاجات العلميـة في المجـلات الفلسـفية المتخصصـة بالمغـرب وخارجـه، مثـل: مجلـة «مـدارات فلسـفية»، ومجلـة «فكـر ونقـد»، ومجلـة «الفكـر العـربي المعـاصر»، ومجلـة «المحجـة»، و«مجلـة المنهـاج»، كمـا صـدرت لـه بعـض الكتـب، منهـا: «ابـن خلـدون بـين نقـد الفلسـفة والانفتـاح عـلى التصـوف» ٢٠١٠، و«الديـن والسياسـة في فلسـفة الفـارابي: مـن التأسـيس البرهـاني للسياسـة إلى التأسـيس الحجاجـي لهـا» ٢٠١١، و«أفـق الحـوار في الفكـر العـربي المعـاصر» ٢٠١١، و«فضـاءات الفكـر في الغـرب الإسـلامي: دراسـات ومراجعـات نقديـة لـلكلام» ٢٠١١.



صـدرت حديثا عـن مؤسسـة «مؤمنـون بـلا حـدود» ضمـن مـشروع الترجمـة المشـترك مـع «دار جـداول للنـشر والترجمـة» في بـيروت، الترجمـة العربيـة لكتـاب بعنـوان «ماذا فعـل الإسلام لنـا... فهـم إسهام الإسـلام في الحضـارة الغربيـة» لمؤلفـه الدكتـور تيـم والاس ميـرفي، وقـام بترجمـة الكتـاب والتقديـم لـه الدكتـور فـؤاد عبـد المطلـب.

يقدم

في هـذا الكتـاب المفكـر الإيرلنـدي تيـم والاس، المعـروف بدراسـاته الناجحـة حـول الرمـوز الدينيـة والتقاليـد القديمـة عـبر التاريـخ، عرضًـا واسـعًا للجـذور المشـتركة بـين اليهوديـة والمسـيحية والإسـلام، سـاعيًا في الوقـت نفسـه، إلى إظهـار إسـهامات الإسـلام العظيمـة في المجتمـع الغـربي، بمـا في ذلـك إرسـاء أسـس أنظمـة التربيـة والتعليـم والفلـك والرياضيـات والهندسـة، كمـا يبـين كيفيـة قيـام القـوى الغربيـة الأوروبيـة في إذكاء نـار الأزمـة الراهنـة في الـشرق الأوسـط، ولمـاذا يجـب عـلى الجميـع البحـث عـن حـل عـادل متـوازن للمشـكلات الناجمـة عـن هـذه الأزمـة.

ووفقًـا لمـيرفي، إن إحـراز التفاهـم بخصـوص ذلـك، لا يمكـن أن يبـدأ إلا بالاعـتراف الصريـح بالـتراث الروحـي المشـترك بـين الغـرب وعالـم الإسـلام، بمـا في ذلـك مبـادئ التسـامح الدينـي واحـترام العلـم ومفاهيـم الأخـوة والفروسـية.

وقـد جـاء في تقديـم هـذا الكتـاب، أنـه «عـلى الرغـم مـن أزمنـة الاضطـراب الـتي يمـر بهـا العالـم حاليًـا، والـتي تصاعـدت في أعقـاب الحـادي عـشر مـن سـبتمبر (أيلـول) عـام ٢٠٠١، واحتـلال العـراق وأفغانسـتان، والعمليـات الـتي تسـمى بالانتحاريـة ضـد المصالـح الغربيـة، وانتشـار الحـركات الجهاديـة المتطرفـة الـتي ظهـرت نتيجـة شـعور دائـم، هـو أن الإسـلام مـازال يتعـرض للهجـوم الغـربي الـذي لا يتوقـف، تظهـر في خضـم هـذه الأحـداث كتـب تـدرس حجـم الإسـهامات الـتي يديـن بهـا الغـرب لتبـصرات الإسـلام الروحيـة، وهـو حقًـا أمـر لافـت للنظـر».

ويضيـف التقديـم أنـه «عـلى القـارئ العـربي الانتبـاه إلى أن هـذا العمـل كتـب في مجملـه مـن منظـور فكـري غـربي، ويخاطـب مـن حيـث الأسـاس القـراء الغربيـين، وأن يأخـذ في الحسـبان أنـه سـيصادف أفـكارًا تعجبـه وأخـرى قـد تسـتوقفه؛ لذلـك كانـت القـراءة المطلوبـة في التعامـل مـع المعلومـات الـواردة، تسـتدعي التـأني والتفكـر والنقـد أيضًـا؛ وسـتؤدي هـذه القـراءة بدورهـا إلى نظرتـين فكريتـين مختلفتـين، أثنـاء تكويـن رأي تقويمـي للكتـاب».

ويعـد الكاتـب الإيرلنـدي تيـم والاس مـن أشـهرالمؤلفين والمحاضريـن عـلى المسـتوى الـدولي، كتـب أزيـد مـن ثلاثـة عـشر كتابـاً، وألقـى محـاضرات في مناطـق عـدة مـن العالـم، توزعـت بـين: أمريـكا، كنـدا، فرنسـا، وإيطاليـا، وظهـر في قرابـة ثمانيـة أفـلام وثائقيـة.

ومـن بـين مؤلفاتـه نذكـر، كتـاب «حـراس الحقيقـة: اسـتمرارية ريكـس ديـوس»، و«الحكمـة المخفيـة: أسرار التعاليـم الغربيـة الباطنيـة»، و«تكسـير قانـون الرمـز: الكشـف عـن أسراررسـائل الهرطقـه بـين الكنيسـة وفـن عصرالنهضـة»، و«لغـز الماسـونيين: تاريخهـم وتفاعلاتهـم الباطنيـة.

وتغطـي أعمـال والاس مجـالات عـدة، منهـا: الجوانـب التاريخيـة للروحانيـة، والحـركات الدينيـة (الكاثـار)، وكنيسـة وسـلين والتعاليـم الباطنيـة الغربيـة، وهـي طيـف واسـع مـن التقاليـد الروحانيـة الموجـودة في المجتمـع الغـربي، والـتي تتضمـن أحيانـاً، عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر، الفلسـفة، والتأمـل، والكيميـاء، وعلـم التنجيـم.

ويعـد كتـاب تيـم والاس المعنـون بـ «مـاذا فعل الإسـلام لنا» دراسـة عميقـة لفهـم إسـهامات الإسـلام في تأسـيس مظاهرالحضـارة الغربيـة، وجوانبهـا القيميـة. كمـا أثـار كتابـه «نشـأة التراجيديـا- نبـذة عـن تاريـخ المجتمـع الفلسـطيني»، قضيـة الـصراع الفلسـطيني مـن وجهـة نظـر جديـدة، لأنـه غالبـاً مـا يتـم تجاهـل القضيـة الفلسـطينية مـن قبـل الغـرب والولايـات المتحـدة الأمريكيـة.

وتجـدر الإشـارة أيضـاً، إلى أن تيـم والاس يعمل مرشـداً سـياحياً في أجمـل المواقـع المقدسـة الأوروبيـة، والأكـثر إلهامـاً في أوروبا.





صدر حديثاً عن «مركز دراسات الوحدة العربية» بيروت، كتاب جديد للباحث المغربي المتخصص في المجال الفلسفي محمد نور الدين أفاية بعنوان «في النقد الفلسفي المعاصر؛ مصادره الغربية وتجلياته العربية».

يحاول أفاية في هذا الكتاب، الواقع في ٢٨٨ صفحة من الحجم المتوسط، الاقتراب من عدد من الفلاسفة والمفكرين الذين ساهموا في بناء صرح الفكر النقدي الأوروبي، من طراز كانط، وهيغل، وماركس، والمدرسة النقدية في لحظتها التأسيسية، أو هابرماس، وفوكو، ودولوز، ودريدا...إلخ، الذين تمكنوا من إنتاج فهم عميق للمسؤولية التاريخية للسؤال والنقد المرتبط بالزمن الحديث. كما يتناول متون مجموعة من المفكرين العرب، الذين أثروا الفكر العربي المعاصر بإدماجهم لمقومات النظر النقدي في التعامل مع الواقع، والتراث، والحداثة.

ويرى أفاية في كتابه، أنه مهما كانت الفروق الموجودة بين نصوص هؤلاء واختلاف مرجعياتهم المعرفية، وانتماءاتهم الإيديولوجية والسياسية، فقد أكدوا، اعتمادًا على أسلوبه المُميز، أن النقد - كل أشكال ومستويات ودلالات النقد -يمثل، بصيغ بالغة التنوع والتعقيد، كتابة للتاريخ ومساءلة له. ومهما بلغت تجريديته ونزوعاته الإيديولوجية، أو تلك التي قد تبدو كذلك، فإن الفكر النقدي الحديث والمعاصر يسكنه قلق التاريخ، كما يجد المفكّر والفيلسوف نفسه محاصرًا بأسئلة الزمان والمكان، والإنسان، والسلطة، والجسد.

وفي تقديمه لهذا الكتاب، الذي يشتمل على ثلاثة أقسام وستة فصول تتفاوت اهتماماتها بمرجعيات وسياقات الفكر النقدي، يشير أفاية إلى أن تاريخ النقد شهد، باعتباره ترجمة لفعل التفكير في الوجود، أشكالاً متنوعة انطلقت من مرجعيات توزعت بين النقد المعياري، والأكاديمي، أو الإيديولوجي، انطلاقًا من اعتبار النقد شرط إمكان تأسيسي لكل فكر عند كانط، مرورًا بالنقد الجسور للاقتصاد السياسي بهدف التغيير الاجتماعي عند ماركس، إلى الأشكال المختلفة للإخفاق الثوري التي اقتضت الاحتفاظ بما سماه تيودور أدورنو «بالجدل السلبي» إلى آخر انفتاحات دريدا التفكيكية.

ويوضح أفاية، أن هناك نمطين اثنين من النقد في تاريخ الفكر الفلسفي برزا، هما: نقد كانطي، يستلهم مقوماته من المرجعية الكانطية التي شكّلت لحظة مفصلية في الفلسفة، وفي التأسيس المفاهيمي للنقد، وتتميّز بكونها تمنح أهمية كبرى للمقولات وللمعرفة من منطلق تحديد صدقيتها، ودقتها، وقيمتها المعرفية. ثمّ النقد الماركسي الذي يؤكد على تعبئة قدرات العقل لتشخيص الواقع التاريخي، والاجتماعي، والسياسي، وكشف آليات السيطرة، والاستغلال المتخفّية في ثناياه وفي سياقاته المتعرّجة.

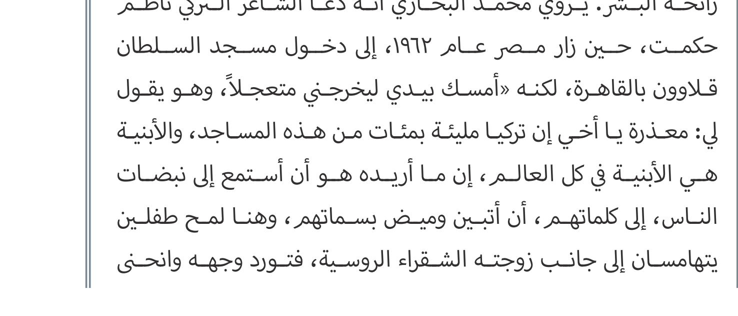
ويؤكد الباحث أن هذين النمطين من النقد لهما حضور كثيف في تاريخ الفكر النقدي، بل يتقوّى هذا الفكر ويحضر، في دوائر الاجتهادات النظرية والمعرفية، كلما تمكّن الفلاسفة والمفكرون من الانتهال من مرجعيتهما، واقتراح تركيب مبدع لمفاهيمهما وللانفتاحات الفلسفية والنظرية التي يسمحان بها. ويحصل ذلك، عندما يتمكّن المفكّر النقدي من الجمع ما بين النقد المعرفي، الإبستمولوجي، وبين النقد التاريخي والاجتماعي، وهو يسائل الأفكار المتداولة، والآراء الرائجة، ويكشف عن أشكال السيطرة والاستلاب والاستغلال التي تفرزها العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع الرأسمالي.

ويلاحظ محمد نورالدين أفاية، أن حضور الفكر النقدي يتفاوت من مجتمع إلى آخر، ويشهد حالات ضعف أو تراجع في بعض الحالات والثقافات. ويعود ذلك، برأيه إلى سببين رئيسين اثنين؛ أولهما تقوقع بعض منتجي الفكر النقدي داخل الدوائر الجامعية الضيقة؛ وثانيهما يعود إلى «الضجيج» الكبير الذي تنتجه مؤسسات النظام الليبرالي من تقارير وكتابات تُضخّم من صيغ ومصطلحات تتلقفها الترسانة السمعية- البصرية، ومختلف القنوات الرقمية الجديدة، وتقدمها إلى «السوق الفكرية» بصيغ وأساليب مُغرية تتحوّل إلى عناوين بارزة في المقالات والكتابات، حيث تتخذ من قضايا العولمة، والتنوع الثقافي، والهوية، والحقوق موضوعات لها.

صدر حديثاً عن «دار العين للنشر والتوزيع» في القاهرة كتاب بعنوان «سبع سماوات» للروائي المصري سعد القرش، ويتضمن رحلات في الجزائر والعراق والهند والمغرب وهولندا ومصر، وهو الكتاب الفائز بجائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة من المركز العربي للأدب الجغرافي.



في تقديمه لهذا الكتاب، يقول الروائي المصري سعد القرش الذي يتولى حالياً منصب رئيس تحرير مجلة «الهلال» الشهرية، إن «المصادفة وحدها صنعت هذا الكتاب. عقب بعض الأسفار، كتبت فصولاً عنوانها التلقائية. ولو كنت أعرف أنها ستجد طريقها لتستقر في كتاب، لأعطيتها اهتماماً لائقاً يتجاوز فكرة رد جميل.. إلى أماكن أو بشر شاءت المصادفة أن يكونوا رفاقاً أو أصدقاء دائمين. لست مولعاً بالسفر، ليس خوفاً من خطر الموت المرتبط بالحوادث؛ ففي مصر أصبحت النجاة، من موت متربص بمواطنين زائدين على حاجة النظام الحاكم، أعجوبة نفوز بها كل مساء، حين نعود إلى بيوتنا سالمين. الطرق في مصر شباك لاصطياد الأرواح بيد ملاك الموت. وقد عودت نفسي كل يوم على توقع الموت... قبل النوم، قبل الذهاب إلى العمل، قبل الانتقال من القاهرة إلى أية مدينة أخرى، قبل السفر إلى الخارج. أستعد للموت وأنا في سلام مع النفس، ومع الآخرين، حتى الأعداء أو الذين يتصورون أنهم كذلك. لا أكره أعدائي، وإنما أستبعدهم من مجال الرؤية، كأنهم غير موجودين، لا محبة ولا كراهية».



ويضيف القرش: «لا أشغل نفسي كثيراً بتأمل غرائب الأماكن، ولا تبهرني البنايات الفخمة، إلا بقدر ما تحمل من الملامح النفسية لمن شيدوها، كأنني أراقبهم، أردد غناءهم، وأحنو عليهم فأحتمل بعض شقائهم، وأمسح عرقاً يتصبب منهم، ويتشكل حجارة لها رائحة البشر. يروي محمد البخاري أنه دعا الشاعر التركي ناظم حكمت، حين زار مصر عام ١٩٦٢، إلى دخول مسجد السلطان قلاوون بالقاهرة، لكنه «أمسك بيدي ليخرجني متعجلاً، وهو يقول لي: معذرة يا أخي إن تركيا مليئة بمئات من هذه المساجد، والأبنية هي الأبنية في كل العالم، إن ما أريده هو أن أستمع إلى نبضات الناس، إلى كلماتهم، أن أتبين وميض بسماتهم، وهنا لمح طفلين يتهامسان إلى جانب زوجته الشقراء الروسية، فتورد وجهه وانحنى يحدثهما متوسلاً أن أترجم له كل ما يقولان».

ويشير صاحب رواية «وشم وحيد» في مقدمة الكتاب: «أدب الرحلة هو فائض محبة. لم أضبط نفسي مضطراً لقول ما لا أريد. أستبق الزمن، ناظراً إلى الأمام مئة عام، وأضع نفسي مكان قارئ لم يولد بعد، سيكون قاسياً في حكمه، وأتفادى أن يصفني بالكذب حين يقرأ لي شيئاً عن بلد لم أحبه بقدر كافٍ يحملني إلى الكتابة عنه. زرت بلاداً جميلة، أو تبدو كذلك، ولم تلتقط نفسي الإشارة، تلك الذبذبة الخاصة بروح المكان، وتأجلت الكتابة، إلى حين أو إلى الأبد. كما تكررت زيارتي لبلاد لم تتجاوز العين إلى قلب يجب أن يفيض بمحبتها أولاً».

ويختم القرش قائلاً: «هذه الفصول كتبت بتلقائية عقب كل رحلة، فكرت في إعادة كتابتها تمهيداً لنشرها في هذا الكتاب، ثم تراجعت؛ ففي إعادة النظر في الكتابة الطازجة لا تكون الرحلة هي الرحلة، ولا أنا أنا، بل شخصاً آخر يكتب عن رحلة الرحلة والذات بعقل منهجي بارد، وبطبعي لا أحب البرود، في البشر أو الكتابة التي أحبها متوهجة حية نابضة بالدماء. لن أعيد كتابة الفصول، حتى لا أحذف منها الكثير، أو أنسف فكرة الكتاب أصلاً، وحسبي ما ذكره العماد الأصفهاني: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غُير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العِبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جُملة البشر».

أليكسو: ٩٧ مليون أمي في العالم العربي

كشف أحدث تقرير للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «أليكسو» بمناسبة اليوم العالمي لمكافحة الأمية (٨ سبتمبر (أيلول))، أن الحكومات العربية ما زالت تواجه العديد من الانتقادات بالتقصير في مكافحة هذه المشكلة، حيث أعلنت أن ٩٧ مليون عربي، من أصل ٣٣٨ مليون نسمة، يعانون من الأمية.

٢٠٪

وأضاف تقرير الأليكسو، رغم تفاوت نسب الأمية من دولة عربية إلى أخرى، أن معدلها في دول العالم العربي مجتمعة، يقترب من ٢٠ في المئة، وهي نسبة تبلغ ضعف المتوسّط على المستوى الدولي.

الصومال

وتستفحل مشكلة الأمية عربياً بشكل خاص، في الصومال، حيث تبلغ نسبتها بين السكان ٦٢ في المئة، ثم موريتانيا ٤٢ في المئة، يليها اليمن ٣٦ في المئة، وأخيراً المغرب ٣٣ في المئة. أما في السودان، والجزائر، ومصر، فإن نسبة الأمية تبلغ ٢٦ في المئة.

٣٫٧٪ - ٦٫٦٪

أما الدول التي تشهد نسب أمية منخفضة، فهي قطر والبحرين والكويت، بالإضافة إلى فلسطين والأردن، وتتراوح النسب ما بين ٣٫٧ في المئة في قطر، و٦٫٦ في المئة في الأردن.

مغزى الأرقام

وقد ولدت هذه المشكلة بدورها مشاكل أخرى، طالت الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والبيئية للمجتمعات العربية، إذ وجدت دراسات أن ثمة علاقة وطيدة بين الأمية من جهة، والفقر والجريمة من جهة أخرى.

وحسب تعريف منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو)، يعرّف الشخص الأمي بأنه «الشخص الذي لا يستطيع أن يقرأ ويكتب جملة بسيطة عن حياته اليومية».

وعلى الرغم من شح البحوث عن هذه العلاقة في المنطقة العربية، إلا أنه، إذا كانت الولايات المتحدة مثلاً مؤشراً، فهناك دراسة تذكر أن الأميين أو شبه الأميين في أمريكا يشكلون ٦٠ في المئة من نزلاء السجون، و٤٣ في المئة من أولئك الذين يقعون تحت خط الفقر.

الأخطر

وفي الدول العربية، يمكن اعتبار الأمية كابحاً للنمو الذي يعدُّ ضرورياً لدى معظم هذه البلدان، فضلاً عن معاناة الأميين من مشكلات صحية ناجمة عن الجهل، بالإضافة إلى عدم معرفة الحقوق والواجبات. لكن الأخطر من ذلك كله، هو أن الأميين يمنحون المجموعات «المتشددة» أرضاً خصبة للتجنيد.

أضعف

وتجدر الإشارة إلى أن الأمم المتحدة، صنفت المنطقة العربية العام الجاري، باعتبارها أضعف مناطق العالم في مكافحة الأمية، وذلك بعد أن تجاوزت الدول الإفريقية العالم العربي في الحد من هذه المشكلة قبل بضع سنوات.

ترقبوا

في العدد القادم

«حرية المعتقد في
الإسلام
عوائق التراث
ومؤشرات التجديد»

